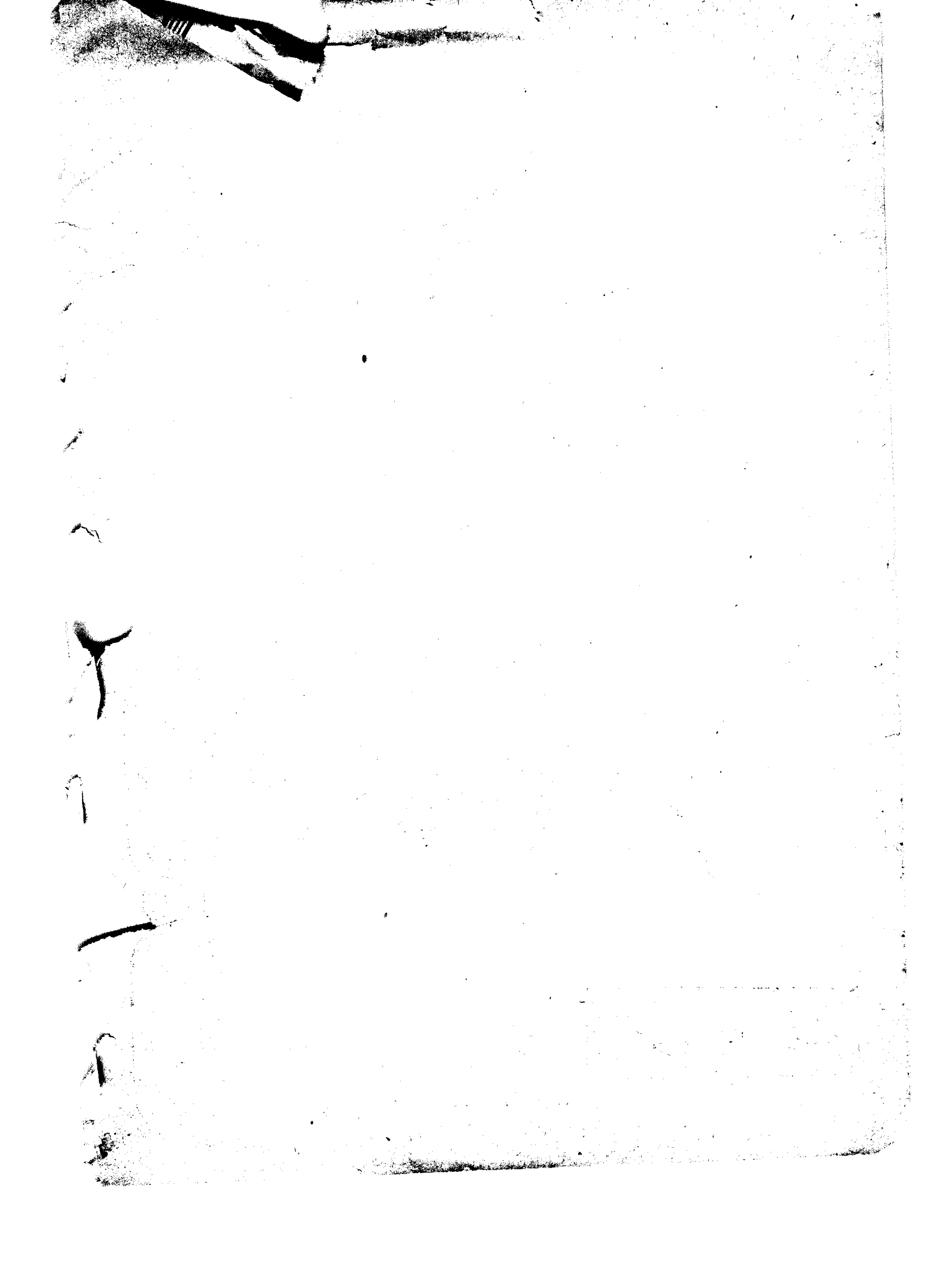

معركة
المقاومة
العربية
أنور الجندى





معركة المقـــاومة العربية

« خلال القرون الطويلة كانت أجيال شعبنا تكافح وتناضل • كان الشهداء يسقطون ـ وبجوارهم أعلامهم ـ مضرجين بالدماء ، ولكن لا يستسلمون أبدا • كانت المعارك لا تنقطع بين مد وجزر وتقدم وتأخر ولكن قوى المعارضة فيهـــا ظلت تخفق وتنبض • كانت الجموع تحشد ولا يستطيع البـارود أن يوقف تقدمها أو يخنق صيحة الحرية التى تنطلق من صــدورها • وأتيح لجيلنا أن يشارك فى هذه المعركة » •

* * *

هكذا صور « جمال عبد الناصر » بطل المقاومة العربية فى العصر الحديث معركة المقاومة العربية ، هذه المعركة التى اســـتمرت ولم تتوقف منذ وطأت أرضنا جحافل الغزاة • ففى خلال هذا التاريخ عشنا معركةطويلة ممتدة ،كلها انتصارات وهزائم ، ودفعات وانتكاسات كان الاستعمار يحـاول أن يستعين بقوى الرجعية للقضاء على ما نحققه من انتصـــارات واسترداد ما نحصـــل عليه من أرض ، ولكن سرعان ما كنا نتغلب عليه ونحطم مؤامراته ، ونمضى الى مرحلة جديدة من النصر •

وما أحوجنا اليوم ، فى هذه المرحلة من حياة الأمة العربية الى أن نراجع معاركنا مع الاستعمار ونواجه من جـــديد صور المقاومة التى واجهنا بهـــا الاستعمار والرجعية فى خلال حياتنا المعاصرة ، منذ قدم الاستعمار فى صـــور متعددة للسيطرة علينا ، ما أحوجنا اليوم الى ذلك وقد أخذ الاســـتعمار رأس جسر فى دمشق ، فى مؤامرة ضد القومية العربية ووحـــدة الأمة العربية • محاولا الادالة مما أحرزنا من انتصارات فى خلال السنوات العشر ، منذ فجر ثورة ٢٣ يوليو ، التى كانت عنوانا على يقظة شاملة للأمة العربية كلهـا من المحيط الى الخليج • وليس ما يحدث الآن جديدا على الأمة العربيـــة ولا على ناموس النهضات والثورات وحركات اليقظة ، فلابد من أن تقع انتكاســـات فى مراحل النهضة ، تعطى الفرصة للمراجعة وتسوية الصف ، والاســتعداد للمراحل التالية ، والاندفاع بقوة أشـــد لتحقيق مرحلة أخرى من النصر فى سبيل الوحدة الكبرى •

ولن تنسينا هذه النكسة الحقيقة الماثلة أمامنا فى كل لحظة ، وهى أننـــا فى معركة مستمرة دائمة مع الاستعمار والرجعية : هى معركة المقاومة العربية٠

هكذا ننظر اليوم الى أيامنا الحاسمة فى معركة المقاومة : يوم حطين ويوم المنصورة وعين جالوت ونفارين ويوم ٢٣ يوليو وانهيار الملكية وتحرير قناة السويس وثورة الجزائر ٠

وننظر الى معارك المقاومة ضد الفرنسيين فى مصر والمغرب والشام على أيدى عمر مكرم وحسن طوبار وعبد القادر الجزائرى وعبد الكريم الخطابى ويوسف العظمة ٠

وننظر الى معارك مقاومة الانجليز فى مصر وفلســطين والعراق على أيدى أحمد عرابى وعبد القادر الحسينى ورشيد عالى الكيلانى وجمال عبد الناصر ٠

وننظر الى مؤامرات الاستعمار فى هزيمة عرابى ووعد بلفور وتقسيم البلاد العربية واعلان الحماية وقتل الأحرار وسجن المجاهدين وتشريدهم والقضـاء على كل قوة ٠

وهكذا نجد أننا لا نكف عن المقاومة فى كـل جزء من أجزاء الوطن العربى الكبير ، فتاريخنا ثورات متواليـــة ومعارك متتالية وانتصارات تحقق لنـــا استعادة كياننا ثم انتكاسات تقوم على المؤامرة لا على الهزيمة ٠

فكل انتكاس لمعركتنا فى مقاومة الاستعمار وتحرير وطننا العـــربى كان يقوم على المؤامرة الغادرة التى تتم فى الظلام عن طريق أعوان الاســتعمار فى المنطقة ، ولقد كانت هذه المؤامرة تتحطم وتنهار عندما نراجع تاريخنا وننظر فى صفحات جهادنا وكفاحنا الذى قام به الأجـــداد والآباء ، فنرى كيف كنا صادقين مع أنفسنا فى المقاومة الدائمة اليقظة ٠

كذلك نحن اليوم نعود الى معـــاركنا وأيامنا « لكى لا ننسى » ولكى نذكر دائما أمانتنا للأمة العربية ودورنا فى « معركة المقـاومة » المتصلة الدائمة فى سبيل استكمال مراحل العمل الـكبير : الحرية والوحدة الـكبرى وتحقيق العدالة الاجتماعية فى الوطن العربى كله ٠

ان قصة « معركة المقاومة العربية » تعطينا صورة الرجعية والعمـلاء الذين يعملون دائما مع الاستعمار لتحطيم قوانا ، ولمحاولة القضاء على الانتفاضـــة

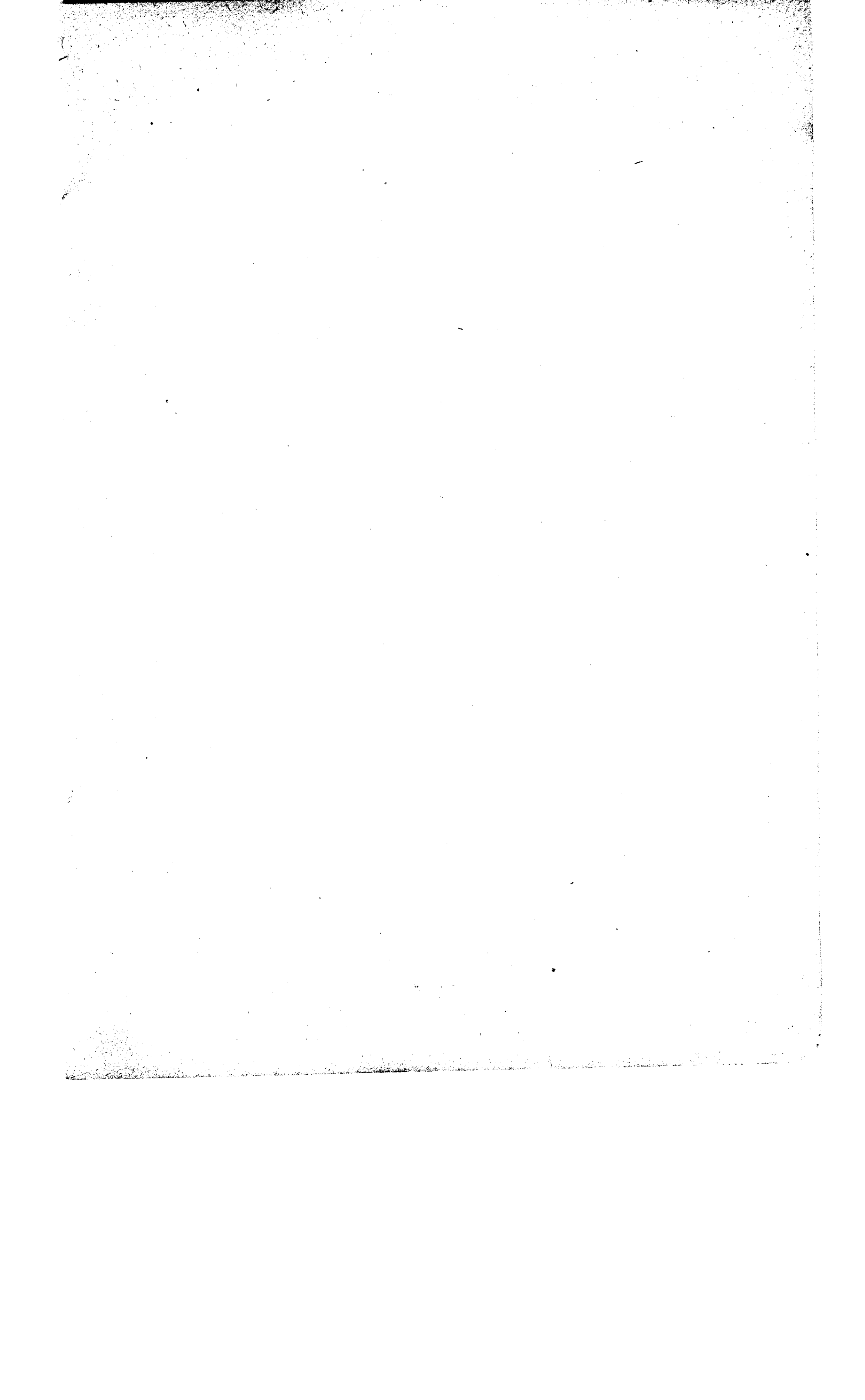
العربية التى بعثها جمال عبد الناصر فدفع بها الأمة العربية الى الأمام بقوة ·
ولا شك أن هذه المرحلة التى نحياها اليوم فى معركة المقـاومة العربية هى أقوى مرحلة فى تاريخ الأمة العربية فلأول مرة تكشف الانتفاضة عن عمـل ايجابى واضح المعالم فى بناء الأمة العربية ، وكان العمـل ضخما والاندفاع قويا، ولذلك كان لابد للاستعمار من أن يستعين بالرجعية ليتخذ رأس جسر فى معركة محققة الهزيمة ، محاولة القضاء على معركة المقاومة أو اضعافهـا ، أو تحويلها الى معركة داخلية ، لذلك فقد كانت القرارات التاريخية التى اتخذها جمال عبد الناصر عملا رائعا فيه القضـاء المبرم على محـاولة تحويل معركة المقاومة العربية عن هدفها الحقيقى ·

واليوم ونحن نعود الى معارك المقاومة العربية نلتمس فيهـا العبرة ، نذكر أنه طالما واجهت معركتنا نكسات سرعان ما تحولت الى انتصارات ·

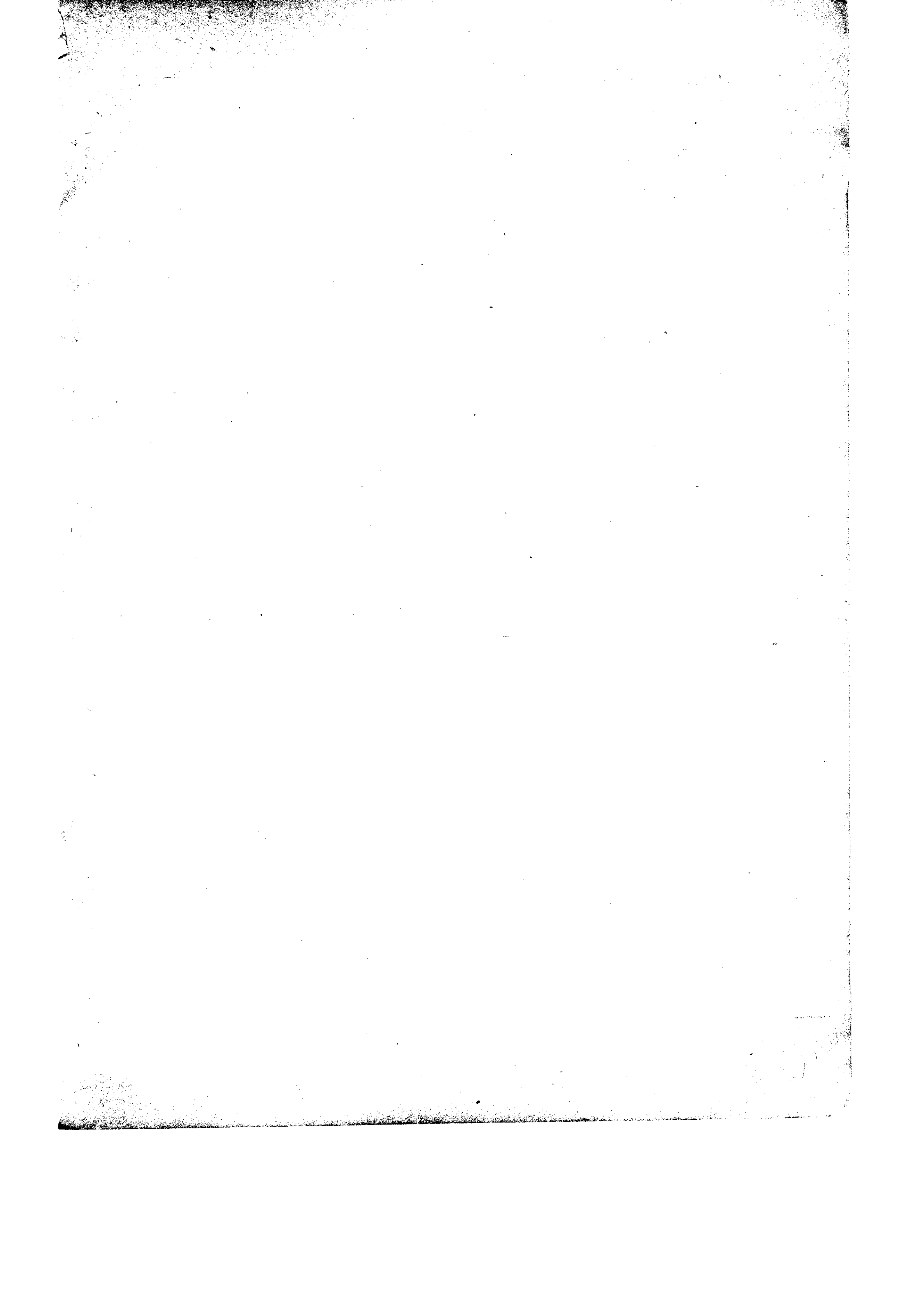
والتاريخ اليوم يعطينا العبرة والقوة واعادة بناء قوة مقاومتنا للاندفاع من جديد الى المعركة : معركة النصر ··

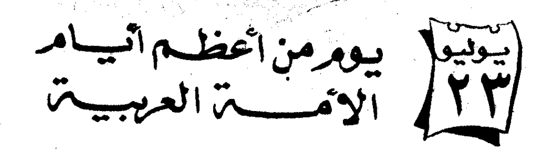
أنور الجندى

ديسمبر سنة ١٩٦٠



معارك المقاومة





كلما أوغلنا مع الزمن بدا لنا يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عظيما باهرا يثير النفس ويملأ القلب روعة ، ويكشف عن آثار جبارة بعيدة المدى فى تاريخ الأمة العربية ٠٠ ويكفى أن ننظر الى صورة الأمة العربية يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ قبل الثورة المصرية العربية بيوم واحد لنرى مدى الفارق البعيد بينه وبين اليوم بعد تسع سنوات وهى قليلة جدا فى عمر الشعوب والأمم ٠

كانت آثار معركة فلسطين قد طواها الملوك والحكام وحاولوا اخفاءها ولكنها كانت ما تزال تعيش جراحا تنزف فى نفوس مجموعة من الضباط الذين عاشوا هذه المعركة بأعصابهم ٠ وتعلموا منها كيف أن المعركة الحقيقية هى فى القاهرة وليست فى خنادق الفالوجة وأرض فلسطين فقد كانت الخيانة والفساد قد تحكما فى وضع النهاية الأليمة لمأساة فلسطين ٠٠ ولم تلبث النقمة أن حلت بالخونة فقتل الملك عبد الله على أبواب المسجد الأقصى ، وفى أرض فلسطين التى ضحى بها وخانها ٠٠

وكان لابد أن يحدث شىء خطير ليس لمصر وحدها وانما للأمة العربية كلها ولفلسطين بالذات وكان أن قام رجل عاش فى خنادق الفالوجة يحلم بمجد أمته العربية ، قام بثورة على الظلم والطغيان ٠

« لقد كنا نحارب فى فلسطين ولكن أحلامنا كانت فى مصر ، كان رصاصنا يتجه نحو العدو الرابض أمامنا فى خنادقه ٠ ولكن قلوبنا كانت حول وطننا الذى تركناه للذئاب ترعاه ، وفى فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز ، وقال الشهيد أحمد عبد العزيز « ان ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر » ٠

وفى جحور الفالوجا المحاصرة ٠٠ التى ركز عليها العدو تركيزا مروعا : كان جمال يناجى نفسه « ٠٠ ها نحن أولاء فى هذه الجحور محاصرون لقد غرر بنا ودفعنا الى معركة لم نعد لها ٠ لقد لعبت مطامع وشهوات وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح ٠٠ » ٠

وكانت هذه هى البذور القوية التى تفتحت فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عن الحقيقة الهائلة وهذه الحقيقة التى اتسع معناها من بعد حتى أصبحت هـذا التيار الضخم : تيار القومية العربية الذى يغمر الوطن العربى ويملأ مشاعر أبنائه ويهز قلوبهم .

لقد تواترت الأحداث بعد معركة فلسطين حتى جاء اليوم الذى قرر فيـه جمال العمل .. العمل الحاسم لوضع حد لهذا الفساد وطى هـذه الصفحة السوداء .. وخرج جمال عبد النـاصر من بيته ليلة ٢٣ يوليو على أنه قـد لا يعود .. لقد أحس بأن اللحظة الفاصلة التى لا سـبيل الى تجاوزها قد جاءت . لقد بلغ التحدى بين القصر والضباط الأحرار أقصى مداه .

وكانت مصر تنتظر جمالا . وكانت العروبة كلها تنتظره . وأقبل جمـال على المعركة .. وليس فى نفسه سوى تحقيق الحرية لهذه الأمة التى طال بها الذل والهوان .

كانت الأمة العربية مفككة ، والاستعمار يمضى فى خطته الجـائرة ، ملوك ورؤساء حكومات من صـنائعه يتولون الحكم ، شعب منعزل عن حـكامه ، قضايا الحرية والجلاء لا يتحدث بها أحـد الا فى همس وخوف للاستهلاك المحلى . وفى بغداد عصابة تعمل من أجل الاستعمار وفى مصر عصابة أخرى وكان لابد من ضربة قوية لتهز العالم العربى كله وتفتح بابا جديدا يدخـل منه النور بعد أن طالت فترة الظلام .

وغربت الدولة التى كانت تحكم بالاستعمار والاقطاع والأحـزاب وبدأت تتفتح حياة جـديدة وتوالت الضربات : ألغيت الملكية ، وتهاوت الأحزاب ، وبدأت حياة جديدة أحس فيها الاستعمار بأنه لا بقاء له . واستطاع جمـال أن يحقق الجلاء بعد بضعة وسبعين عاما من الاحتلال وأمم قنـاة السويس . وجاء العدوان الثلاثى وتحطم على سواحل بور سعيد ، وتحقق قيام الجمهورية العربية المتحدة كخطوة أولى للوحدة العربية الكبرى ولن يضيع حصاد هـذه التجربة فى غمار النكسة أبدا ، وفى خـلال ذلك قامت ثورة لبنـان وثورة الأردن ، وثورة العراق وتحررت ليبيا والسـودان وتونس ومراكش وقامت ثورة الجزائر المجيدة التى ما زالت تضرب الاستعمار الفرنسى أعنف الضربات .

وقام فى الأرض العربية عملاق جديد هو ايمان هذه المقاومة بوحدتهـا .. وبدأت آسيا وأفريقيا تتجمع فى رابطة ضخمة . وأحكمت بذلك عمليـات المقاومة ضد المستعمرين فى كل مكان .. واشرق فجر جديد بدت ملامحه منذ فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

واليوم ـ وقد مر أكثر من تسع سنوات من عمر الثورة المصرية العربيــة الكبرى المديد التى حمل لواءها (جمال عبد الناصر) ـ نتلفت الى الوراء فنرى اننا قطعنا شوطا طويلا لا يقل من حيث (الكيف) عن نصف قرن من الزمان، هذا لو أنه أمكن لأمتنا أن تتطور الى الأمام ولا ترجع الى الوراء بحكم العــوامل التى كانت مسيطرة على بلادنا قبل الثورة والتى كانت ستؤدى بغير شك الى أثر عكسى بالغ لو لم تقم الثورة فى موعدها المحتوم ٠

عندما نتطلع اليوم الى الماضى نجد تحولا كبيرا فى معالم حياتنــا ٠ وتطورا واضحا فى مظاهر شخصيتنا ، وأعتقد أن شخصية (جمـــال عبد الناصر) بالذات باعتباره القائد الأعظم الذى رسم خطوط هذه الثورة ونفذها وسيطر على الخطوط العامة التى قامت على أساسها التطورات التى تحققت فى محيط حياتنا النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، هذه الشخصية تمثل موضع الثقل وقطب الرحى وصمام الأمان فى هذا التطور الضخم الذى امتد أثره الى أبعد مدى فى الأرض التى يسكنها العرب ويتكلم أهلها اللغة العربية٠

وهذه هى « الظاهرة » الجديدة التى تمر بها الأمة العربيــة لأول مرة منذ أكثر من مائة عام بعد أن مزق الاستعمار المنطقة وأقام الحدود المصطنعة بين أجزائها وحال دون وصول صوت جهير امتد عبر هذه الحدود الى المنطقـــة كلها ٠

واذا كانت هناك أصوات جهيرة قد استطاعت أن تصل الى مسامع العـــالم العربى كله دون خطر فانها قد كانت أصـــوات بعض المصلحين الذين كانوا لا يملكون من قوة العمل الايجابى شيئا ٠ والذين كانوا فى الأغلب يمهدون لقيام « قائد » له سلطات كاملة وفى يديه قوى فعـــالة ليكون ظهيرا لحركات التحرر والمقاومة والتجمع وتحطيم هذه الحدود والالتقاء على « أمانة » الوحدة الكبرى ٠

ففى خلال هذه السنوات التسع تحـــول الكثير من مفاهيمنا تحـــولا من السلبية الى الايجابية ، ومن الحـــدود الضيقة الى القومية العربيــة ٠ ومن الحزبية والفرقة الى التجمع ٠ ومن اللامبالاة الى العمـــل ، ومن الشكوك الى الثقة ، ومن التفاهة الى الرصانة ٠٠٠ تغيرت كل مفاهيمنا حيث أخذنا فى طابع حياتنا الاجتماعى بأساليب الاستقامة والقوة الايجابية ٠ نفس الأساليب التى يصرف بها الرئيس جمال الأمور على مستوى أعلى ، أصبحت نبراسا للمواطن فى تصرفاته الخاصة وأعماله الفردية ٠

وارتفعت روحنا المعنوية بعد الجلاء وازدادت قوة بعد انتصـــارات تأميم القنال وهزيمة العدوان الثلاثى ٠

وأحسسنا بعاطفة الأسرة العربية الكبيرة بعـد أن كنا معزولين عنهـا ، تجاوبت مشاعرنا مع اخواننا فى كل مكان من المحيط الى الخليج .
كان « الاصلاح الزراعى » علامة على طريق طويل من التحرر الاجتمـاعى قضى به على الاقطاع ، واختفت من وجهه الحياة ، تلك الصورة البغيضة التى كنا نراها تفرض سلطاتها فى الريف وفى الانتخابات وفى دواوين الحكومة .

وكان « اعلان الجمهورية » من قبل والقضاء على النظام الملكى كليـة علامة ضخمة من علامات الطريق الى الاتجـاه الجمهورى ، وبروز شـعبية الأمة وارتفاع اسمها وتعمق وجودها ووضوح ملامحها .

فقد تآكل النظام الملكى وبليت قوائمه واندست تحت عرشـه كل جرائيم الاقطاع والجريمة والظلم الأسود والطغيـان والفسـاد ، وكان لابد من أن يتصدع بناؤه وتغرب شمسه .

وجاء « الجلاء » ليعطى لجمال عبد الناصر صورة الرجل الذى دخل التاريخ من الباب الذى ظل مفتوحا ينتظر بطلا يدخل منه أكثر من سبعين عاما ، فقد عرف الحل الذى عجز عنه من سبقوه ، وأقنع الاستعمار بأنه يجب أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل والا فليدافع عن وجوده حتى الموت !!! .

وكان « تأميم القناة » هو الآية الكبرى للاسـتعمار الذى لا يسمع الا فى ضعف ولا يفهم الا ببطء على أنه قد ظهر لأول مرة رجل فى الشرق يستطيع أن يرد الضربة بأقوى منها ، ويقوى على أن يقف فى وجه الغرب بأسـاطيله وجيوشه ، ويقاوم من بيت الى بيت جحافل ثلاث دول فى معركة كان النصر فيها للقومية العربية والهزيمة الساحقة لبريطانيا « العظمى » التى ارتدت عن مكان الصدارة حتى وصلت الى الصفوف الثانية .

وكانت « الجمهورية العربية المتحدة » هى قمة الثورة العربية الجـديدة القائمة على عناصر عجزت عنها الثورات السابقة ، قوامهـا : الايمان بالذات العربية ، وسياسة الحياد الايجابى بين المعسكرات والوقوف على قدم المساواة مع الدول الكبرى وتحطيم سياسة الأحلاف ورفض الانحياز .

ثم خطت مصر خطوات أخرى فى دعم كيانها العربى : فكان « السد العالى » هو العمل الكبير الذى صممت مصر على القيام به ومضت فى اعداد الخطوات التنفيذية له ، ثم كانت « الصناعات الثقيلة » خطـوة أخرى لتحقيق الـكفاية فى الجيش والوطن وتمت خطوة اعداد « القاعدة الشعبية » .

وكانت هذه الأعمال الضخمة الـكبرى التى تمت فى تسع سـنوات قد دفعت المنطقة كلها الى يقظة عارمة ، وتنادت أجزاؤها الى الوحـدة الكبرى ، واندفعت كل الأجزاء تقاوم الاستعمار وتحطم قيوده ، سواء الداخلية منهـا التى مصدرها الاستبداد والدكتاتورية ، أو الخارجية التى مصدرها الاحتلال والاستعمار ٠

وكانت النفس العربيـة قد اكتسبت من هـذه الخطوات الاجتمـاعية والاقتصادية والسياسية كلها ذخائر جديدة أمدتها بالقوة والايمان ارتبط فيها حاضرها الضخم بماضيها البعيد الحافل بالأمجاد ٠

سقوط دستور الملك

٩ ديسمبر ١٩٥٢

أعلنت الثورة فى ٩ من ديسمبر ١٩٥٢ اسقاط (دستور ١٩٢٣) بعد أن ثبت أنه ملىء بالثغرات وأنه لم يعد يتمشى مع النهضة والتطور . والواقع ان هذا الدستور كان موضع النقد من المصلحين طوال الفترة الماضية . اذ وضع حين وضع فى ظل الاحتلال ، وقد تضافرت عليه قوى الاستبداد الذى كان يمثله فؤاد ، والاستعمار الذى كانت تمثله بريطانيا .

وعندما أعلن استقلال مصر بتحفظات أربعة بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ شكلت فى ٣ من ابريل ١٩٢٢ بمعرفة وزارة عبد الخالق ثروت لجنة لوضع مشروعه عهد برياستها الى حسين رشدى (باشا) ولم يشترك الوفد ولا الحزب الوطنى فيها ، وكان رأيهما أن يعهد بوضع الدستور الى جمعية وطنية تأسيسية .

ورفعت اللجنة مشروع الدستور الى عبد الخالق ثروت فى ٢١ أكتوبر ١٩٢٢ ورفعه ثروت الى السراى ولكن فؤاد كان يبغض الدستور ولا يميل الى اصداره لأنه يغل سلطانه وينقل الحكم الى يد الشعب . وكان خلال أعمال لجنة الدستور متتبعا أعمالها فى شىء غير قليل من النقمة على ما سماه انتقاص سلطة الملك . مطالبا بالتدخل لتعديل هذه النصوص .

وقد عمد فؤاد الى تنحية ثروت عن الوزارة حتى يعطل الدستور ، وشكل وزارة أخرى برياسة توفيق نسيم فكان أول أعمالها الشروع فى مسخ الدستور وادخال تعديلات رجعية على مشروعه . فقد كان نسيم يؤمن بأن الدستور منحة من الملك وليس حقا من حقوق الأمة فأعطى الملك قدرا من الحقوق غير الدستورية .

وقد أدى هذا التغيير لارضاء الملك الى تعديل آخر لارضاء الانجليز ، فقد تقدمت بريطانيا بانذار أبلغه اللورد اللنبى المعتمد البريطانى الى الحكومة

المصرية اذ ذاك ـ وقد جاء فيه : انها لا توافق على ذكر السـودان فى مشروع الدستور • وادعت وزارة الخارجية البريطانية أن المادتين الخاصتين بالسودان فى مشروع الدستور تعتبران انكارا لاتفاقية ١٨٩٩ وخروجا على تصريح ٢٨ فبراير وفصلا فى أمر السودان من جانب مصر وحدها • وقد سلم المعتمـد هذا الانذار الى الملك مباشرة وطلب منه الرد اما بالرفض أو القبول فى مدى ٢٤ ساعة وقالت الصحف ان الرد تضمن التهديد بالرجوع الى حكم الحمـاية واعلان الغاء اتفاقية ١٨٩٩ وضم السودان الى بريطانيا •

وقد أسرع الوزراء بالاجتماع فى سراى عابدين وقرروا تغيير النص بدلا من حذفه وقد كان الدستور مليئا بالثغرات وفى نصوصـه انه منحة من الجالس على العرش وأن ذات الملك مصونة لا تمس •

ولم تجد صرخات المطالبين بدستور حقيقى وسلمت وزارة نسيم بالمطالب البريطانية وأعلن الدستور على هذا الأساس فى ابريل ١٩٢٣ •

وجاءت الحياة السياسية فى مصر برلمانا وحكومة وأحزابا تمثل اضطراب هذا الدستور فكلها تدعى التمسك به وترمى خصومها بأنهم خصوم الدستور وأعداؤه وأنهم فرطوا فيه وجنوا عليه • وقد وصف الوفد لجنة الدستور بأنها لجنة الأشقياء فلما صدر الدستور وحصل الوفد على الأغلبية عام ١٩٢٣ قالوا عنه انه دستور وضع على أحدث الأسس العصرية •

ولم يفلح الدستور فى رد طغيان فؤاد فى حل برلمان سنة ١٩٢٥ بعد جلسة واحدة من جلساته ••• وعندما ولى الحكم محمد محمود فى ٢٧ يونيه ١٩٢٨ عطل الدستور وقال انه سيحكم البلاد بيد من حديد •

وجاء اسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ فألغى الدستور كلية وأعلن دسـتورا جديدا لم يلبث أن فشل فى تطبيقه وعادت المطالبة بالدستور القديم • فألغى توفيق نسيم دستور سنة ١٩٣٠ فى ٤ نوفمبر ١٨٣٤ دون أن يعيد الدستور الأول وعرف أن الانجليز طلبوا من نسيم أن تظل البلاد بدون دستور •

وتعالت الصيحات مطالبة باعادة دستور ١٩٢٣ غير أن الحكومة البريطانية أبلغت مصر عن طريق مندوبها بأنها لا تعـارض فى أن تتمتع مصر بالحيـاة الدستورية فى الوقت المناسب وهى ترى أن يكون وضعه ـ أى الدسـتور ـ

بواسطة لجنة حكومية يكون من بين أعضائها ممثلون للأحزاب السـياسية المختلفة .

وفى ٩ نوفمبر ١٩٣٥ القى « صمويل هور » وزير الخارجية البريطانيـة كلمة تناول فيها الحديث عن الدستور المصرى وصرح بأنه عنـدما استشيرت الحكومة البريطانية فى شأنه نصحت بألا يعاد دستور سنة ١٩٢٣ أو دستور عام ١٩٣٠ اذ ظهر أن الأول غير صالح للعمل والثانى لا يطابق رغبات الأمة !

وقامت مظاهرات دامية على اثر اعلان هذا التصريح ووقعت حوادث متعددة واستشهد فى ساحة الجامعة محمد عبد المجيـد مرسى وعبد الحكم الجراحى وطه عفيفى وغيرهم وتكررت المظاهرات وحدث اضراب ضخم يوم ٢٨ نوفمبر وأغلقت المتاجر فى القاهرة واحتجبت الصحف وتجددت الفكرة الى توحيـد الصفوف حتى تم تأليف الجبهة الوطنية فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ وعاد دستور ١٩٢٣ .

ولكن ما كاد فاروق يلى الحكم حتى جعل من هذا الدستور ألعوبة فى يده فلم يكن هناك ما يحول دون تنفيذ رغبات الملك . وظهر من زعماء الأحزاب ورجال السياسة من يستطيعون تحوير تفسير نصوص الدسـتور وفق أهواء الملك .

ولذلك فقد كان من أبرز أعمال الثورة فى شـهورها الأولى الغاء هـذا الدستور

إنهيار الملكية والغاء حكم أسرة محمد علي

١٨ يونية ١٩٥٣

حققت الثورة المصرية العربية بقيادة جمال عبد الناصر فى ١٦ يونية ١٩٥٣ الغاء الملكية وحكم أسرة محمد على والقضاء على لون من السلطة كان غاية فى العسف والاعنات ٠

ولقد اتجه تفكير رواد العمل الوطنى فى مصر منذ وقت بعيد الى تطبيق نظام الجمهورية غير أن الظروف وقفت دون تحقيق ذلك فى محاولتين كبيرتين٠ الأولى بقيادة عمر مكرم فى ١٨ يوليو ١٨٠٥ ، فلأول مرة فى تاريخ الشرق الحديث نرى زعيما كعمر مكرم يفهم حق الشعب فى اقامة الحاكم الذى يرتضيه ونوع الحكم الذى يرغب فيه ٠ ويواجه « خورشيد » الوالى التركى الظالم — فيستمسك خورشيد بالمنصب رغم ثورة الشعب : ويقول انى مولى من قبل السلطان ولا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر السلطنة٠

ويرد عليه عمر مكرم فى قوة فيقول : ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ٠ وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو الا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ٠ فلقد كان دائما لأهل مصر الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا أساء ولم يرض الناس عنه على اننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة أهل البلاد منذ الأزمنة القديمة بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه٠

واستطاع الشعب بقيادة عمر مكرم أن يعزل الوالى التركى ٠

ولكنه أخفق فى اختيار محمد على ، ذلك انه ارتضاه لمصر على سنة النظام الجمهورى وظن انه انما يقدم مصر الى أسلوب الشورى فى الحكم ٠

وكان اتفاقه — بوصفه زعيما لأهل الشورى فى مصر — مع محمد على يقوم على أساس المشورة والمراجعة على أن يمثل عمر مكرم مطالب الشعب ورأيه فى المسائل الكبرى وقبل محمد على ذلك فى أول الآمر حتى استطاع أن يخدع أنصار

عمر مكرم بالمال والاقطاعيات فعزلهم عنه ثم مضى يحطم جبهة المقاومة الشعبية التى جاءت به الى الحكم وعزلت خورشيد ، والتى كان لها تاريخها الضخم فى مقاومة نابليون خلال ثلاث سنوات كاملة وهزيمته • فاستطاع أن ينفى عمر مكرم الى دمياط وأن يستأثر بالسلطة وأن يتجه بها الى ملك وراثى عضـــود وعمد الى قمع المعارضة ورفض نهائيـــا فكرة عمر مكرم فى الشورى ورفـع الظلم • •

وبهذا تحطم الأمل فى اقامة الجمهورية الأولى فى مصر •

وكانت المحاولة الثانية فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ عندما وقف أحمد عرابى فى ميدان عابدين على ظهر فرسه شاهرا سيفه يقدم للخديوى توفيق مطالب الجيش والشعب • باعتباره قائدا للثورة والجيش الذى كان يحـــاصر قصر عابدين ويغمر ساحته الكبرى ومن ورائه وقفت جمـــوع الأهالى الذين كانوا يرون فى عرابى أملا لهم فى رفع الظلم •

وطالب عرابى بتحقيــق مطالب الجيش والأمة وتنحية هـــذه الحفنة من الباشوات والحكام الأتراك الذين كانوا يتسلطون على كل شىء •

ولكن عرابى رأى أن يتدرج فلا يعزل الخديو دفعة واحدة • وانما يجرده من سلطاته فطالب باقالة الوزارة وقد استجاب له الخديو صاغرا •

غير أن بريطانيا مع الخديو استطاعا أن يطعنا عرابى من الخلف وأن يحطما اتجاهه الجمهورى وأن تفرض الظروف أوضـــاعا تدفع عرابى الى محـــاربة الانجليز الذين هاجموا البلاد واحتلوها وبذلك تحول الموقف وفشلت المحاولة الثانية فى اقامة الجمهورية المصرية •

وكان لابد من انتظار سبعين عاما كاملة حتى يجىء اليوم الذى يتحقق فيـه قيام الجمهورية والغـــاء الملكية وتحرير مصر من حكم أسرة ظالمة كانت عونا للمستبد وأداة للاقطاع وسندا للحزبية البغيضة وعميـلا للمستعمر • وكان قد أصبح حقيقة واقعة أن مصر لن تستطيع أن تتحرر أو تخطو أى خطوة فى سبيل الجلاء والحرية وتحقيق أهدافها الا بالتخلص من هذا النظام وهـــذه الأسرة فقد وقفت أسرة محمد على بجوار الاستعمار سبعين عاما وذهب حكام مصر منها الى آخر الشوط فى الغدر والظلم والفساد والطغيان والانحلال وقد صور ذلك جمال عبد الناصر فى قوله قبل اعلان الحكم الجمهورى بأيام « ان النظام الملكى قد تآكل وانتهى بعـــد أن أتى سوس الفساد والخيـــانة على

عرشه • ولن تقوم لهذا النظام قائمة ثانية • بعد أن عانت البلاد من مساوئه الكثير فهو السبب الأول للاحتلال الانجليزى للبلاد وتوطيد أقدامه سبعين عاما » •

واليوم وبعد مرور ثمانى سنوات على الغاء الملكية وحكم أسرة محمد على ننظر فنجد أن هذه الخطوات الضخمة التى قطعناها لم يكن من اليسير قطعها ونحن فى ظل النظام الملكى الذى كان يقيد خطواتنا ويربطها الى الاستعمار ويدعم سلطانه بالفساد والتسلط والقمع •

لقد كشف الغاء الملكية عن مصر سلطة الاستبداد وأداة الاستعمار وحقق لنا ما عجزنا عن تحقيقه •

سقط حكم أسرة محمد على فى ١٨ يونية ١٩٥٣ بعد أن امتد حكم هذه الأسرة قرنا ونصف قرن ، بدأ فى ١٢ مايو ١٨٠٥ عندما قلد العلماء محمد على ولاية مصر ثم انتقلت الى عقبه وظلت وراثية فى أبنائه وأحفاده خلال هذه الفترة حتى انتهت باخراج آخر ملوك هذه الأسرة فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ من مصر • ثم الغاء الملكية وحكم أسرة محمد على وكان العرش المصرى فى خلال هذه الفترة عنوانا على الظلم والاستبداد والطغيان خاصة فى الفترة التى سبقت الاحتلال البريطانى • فقد كان أفراد هذه الأسرة خصوما حقيقيين للمصريين • كانوا يرون أهل الوطن عبيدا لهم • وقد أعلن ذلك توفيق حينما واجه عرابى فى ميدان عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ بقوله : « أنا خديو البلد وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى • وما أنتم الا عبيد احساناتنا »

وقد كلف اسماعيل وتوفيق وعباس الثانى وفؤاد وفاروق مصر ملايين ضخمة أضاعوها على الملذات والخيانات ، وعاش الشعب فى خلال هذه الفترة حياة كلها الاستبداد والسخرة والتسلط والاقطاع ••

فقد سحب محمد على من المزارعين عقود التزامهم ثم أحرقها • وبذلك لم يعد فى مصر من يملك قيراطا واحدا ، ثم بدأ بتوزيعها على خدمه وأتباعه من الأتراك والألبانيين •

وبدأت مرحلة من استعباد الفلاحين لا مثيل لها • امتدت وتضاعفت فى خلال حكم هذه الأسرة الظالمة ••

وسخر المصريون لحفر قناة السويس ، وفقدت مصر بها ١٢٠ ألفا من أبنائها ، كما سخر الفلاحون لحفر الترعة الأشرفية (وكان اذا قرب وقته

الحصاد رد الفلاحون الى الأرض لجمع المحصـــول ، فاذا جاء شهر (أبيب) ونودى بوفاء النيل أمر محمد على حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل فكانوا يربطونهم قطارات بالحبـــال وينزلون بهم فى المراكب وتعطلوا فى زراعـــة (الدراوى) الذى هو قوتهم وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى • ومات الكثير منهم من البرد والتعب وكل من سقط هالوا عليه تراب الحفر ولو فيـه الروح) ••

وأسرف محمد على فى ارهاق الشعب بالضرائب وحشد المظالم فوق كاهله•

وأدت فداحةالضرائبوأعباء السخرةالى الهجرةالى سوريا وبلغ عددالمهاجرين ستة آلاف من الفلاحين • وكان محمد على قد سحق المقاومة الشعبية وخـدع العلماء ونفى عمر مكرم ومضى فى أسلوب الاستبداد والطغيان •

ومضى اسماعيل فى امتصاص دماء الشعب ، وفى عهـــده دفعت مصر ١٧ مليون جنيه من نفقات حفر القناة التى بلغت ١٨ مليون جنيه •

وباع اسماعيل أسهم مصر فى القناة وكانت تساوى ٧٢ مليونا منالجنيهات الى بريطانيا بأربعة ملايين من الجنيهات •

وسخر ٨٠٠ ألف نسمة عام ١٨٣١ ومات فى حفر ترعة المحمودية ١٥ ألفا وبلغت جملة قروض اسماعيل ١٢٦ مليونا من الجنيهات •

أما توفيق فقد عاش حياته عبدا للاستعمار ، ذليلا لممثل بريطانيا ، خاضعا لكل ما يفرض عليه • وما أن رأى عرابى يقاوم الانجليز حتى انضم الى عـدو البلاد ، وجند الخونة من سلطان باشا الى على خنفس الى غـيرهم من الاعراب ليساعدوا الانجليز فى احتلالهم لمصر • وبعد أن مكن الخديو توفيق للانجليزمن دخول العاصمة وقف تحت العلم البريطـــانى أمام قصر عابدين واسـتعرض القوات البريطانية المحتلة •

أما عباس الثانى فقد استطاع أن يقوم بمنـــاورة فى أول الأمر حين ادعى الوطنية وقرب اليه مصطفى كامل فلما حمل اليه « الدون غورست » فى مايو ١٩٠٧ سياسة الوفاق حارب الحركة الوطنية وأعلن استعداده للتعاون مـــع المعتمد البريطانى •

وتولى فؤاد الملك بالاتفاق مع الدولة المحتلة • فعـــاش حياته ملكا ذليــلا راضيا بالاغتصاب والعنف الذى أصاب المصريين ابان الحرب العـالمية والذى

صبته عليهم السلطة العسكرية البريطانية وهـو الذى منح بريطانيا من مال مصر ٣ ملايين ونصف مليون جنيه وقال ان ذلك اعتراف بجميل بريطانيـا العظمى التى حمت مصر من خطر الغارات !!

وظل فؤاد محتجبا فى قصره خلال ثورة ١٩١٩ تاركا للسلطة العسكرية البريطانية الغاشمة تصويب رصاص بنادقها الى صدور المجاهدين ووقف من الدستور موقف الخصومة ومضى يضع العقبات فى طريق اصداره • كما أوقع البلاد فى عدد من الانقلابات الدستورية وكان مـع المحتلين والأحزاب يحطم قوة الوطن ويعين على امتداد الطغيان والاستبداد والاقطاع •

وجاء فاروق فكان عنوانا على كل هذه المعانى التى عرفت فى ظل حكم أسرة محمد على كلها ولكن على نحو أشد رهبة ، فقد كان علما على الاثم والطغيـان ليناسب ذلك خاتمة قصة محمد على • والواقع أن ملكا من الملوك لم يصـل طغيانه وفجوره الى ما وصل اليه فاروق •

كان فؤاد قد ترك ثروة تعد بحوالى ٤٩ ألف فدان خص فاروق منهـا ١٥ ألف فدان وقد ارتفع هذا الرقم قبل الثورة الى ٩٣ ألف فدان وكان هـذا التوسع على حساب الشعب •

وبعد •• فان القول بأن أسرة محمد على أسرة ملوثة بالمخازى ليس بعيـدا عن الحقيقة ، وليس ما أذيع عن فاروق بجديد بالنسبة للذين قرأوا المذكرات المكتوبة التى وضعها المؤرخ أحمد شفيق باشا عن حكم اسماعيل •

وقد كانت هذه الأسرة عونا للأحزاب على سحق القومية • وعونا للاقطاع على اذلال الفلاح • وعونا للمستعمر على عصر خيرات الوطن • وقد حطم محمد على المقاومة الشعبية التى هزمت نابليون ، وحطم فؤاد المقاومة الشعبية التى قامت بثورة ١٩١٩ •

وقد حاول أحمد عرابى أن ينهى حكم أسرة محمد على ولكن الأحـداث فاروق فى الانذار الذى وجهه اليه يوم ٢٦ يوليو حقيقة موقف الملكية فى مصر فى قوله :

« انه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميـع المرافق نتيجة لسوء تصرفكم ، وعبثكم بالدستور ، وامتهانكم لارادة الشعب ،

حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته ، ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير . وقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الخلق وزعزع الثقة فى العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم .. » .

وكان من الطبيعى أن تتهاوى الملكية فى مصر وتؤذن دولتها بالمغيب فى هذه السنوات الأخيرة بما وصفه الرئيس جمال عبد الناصر بقوله :

« ان النظام الملكى قد تآكل وانتهى بعد أن أتى سوس الفساد والخيانة على عرشه . ولن تقوم لهذا النظام قائمة ثانية بعد أن عانت البلاد من مساوئه الكثير فهو السبب الأول للاحتلال الانجليزى للبلاد . وتوطيد أقدامه سبعين عاما .. » .

الثورة الجزائرية

٤ نوفمبر ١٩٥٤

أول نوفمبر : اندلاع الثورة الجزائرية فى جبال الأطلس : « لقــد بدأنا الحرب وليس معنا من الأسلحة الا بنادق الصـــيد ، والمسدسات والبنـادق الايطالية ولم يكن أغلب المحاربين يحملون السلاح • بل كانوا يحملون أعمدة من الحديد • وبدأنا الهجوم على مراكز البوليس النـــائية ، ونصبنا الكمين لهؤلاء الذين باعوا أنفسهم للفرنسيين بغية المـال • أو التوظف فى الحكومة لنسوى حسابنا معهم ، وكنا نقسم أنفسنا الى جماعات تتكون كل جماعة من خمسة أشخاص وهى فى حركة دائمة لنلقى فى روع العدو أن عددنا كبير•• وهاجر الكثيرون من منازلهم ليتقوا انتقام الفرنسيين من أسرهم •

« واليوم بعد عدة أعوام من الحرب ، نمت قوتنـــا وأصبحنا جيشا يملك أحدث الأسلحة وها نحن نسدد للعدو ضربات قاسية • وفى استطاعتنا شن معارك تستغرق أسبوعا ضد وحدات لا يقل عددها عن الف مقاتل ، كمـــا حدث فى أوائل شـــهر مايو الماضى ، على خط موريس الذى أبدنا جهـــازه الكهربائى وقطعنا أسلاكه فى قطاعات واسعة ونفعل ذلك كلما مررنا به • على أن تفوق العدو الفنى ، وقوة طيرانه ومدفعيته جعلتنا نعتمد فى أغلب معاركنا على حرب العصابات التى تخيف جنود العدو •

« لقد تقرر مصير الاستعمار الفرنسى لأن شعبنا قد جند كله للحرب وزاد عدد جيشنا على مائة الف رجل مسلح » •

هذه هى عبارات قائد الثورة الجزائرية لمحرر جريدة بوربا اليوغوسـلافية وهى تصور مدى ارتفاع الروح المعنوية للجزائريين المجاهدين فى مقـــاومتهم لحرب الابادة الفرنسية •

لقد ظن الفرنسيون أن المسألة لا تعدو أن تكون احدى محاولات المقـــاومة ولكنهم دهشوا عندما رأوا الجزائريين يصمدون ويكسبون النصر بعد النصر• بل ان نطاق المعركة يتسع ساعة بعد ساعة • حتى شمل جميع أبناء الجزائر

بعد أن كان فى أول الأمر مقصورا على نحو ٣ آلاف مواطن هم الدفعة الأولى التى خرجت من مخابئها الجبلية بالمنطقة الغربية ٠

وقد قاومت فرنسا الثورة بتجنيد ٤٠٠ ألف جندى من المشاة والطيارين تعاونهم الدبابات والمدافع والطائرات ٠ كما استعانت بأسلحة حلف الأطلنطى وقد كلفتها مواجهة الثورة مليونا من الجنيهات يوميا وقد قدرت نفقات الحرب سنويا بما يربو على ٧٠٠ ألف مليون فرنك ٠ كما تساقطت وزارات فرنسا كأوراق الخريف وعجز البرلمان والدولة عن التمتع بالاستقرار الحكومى فضلا عما أصيبت به فرنسا من التضخم والافلاس والعجز عن تنفيذ برامجها ٠ وتروى بعض الاحصائيات أن فرنسا خسرت ٤٠٠٠ جندى مقتول و٦٠٠٠ و٧٠٠ مفقود ٠ أما المجاهدون الجزائريون فقد وقع منهم فى أسر الفرنسيين حوالى ١٣ ألفا وقد سقط منهم حتى الآن نصف مليون شهيد ٠

ولا شك أن الحق ـ وهو فى جانب المجاهدين الجزائريين ـ قد دفع عددا كبيرا من جنود المستعمرات الفرنسية الذين كانوا يعملون فى الجيش الفرنسى الى الانضمام الى الجزائريين وأصبحوا يحاربون معهم جنبا الى جنب ويهاجمون المناطق الحساسة وينزلون بالفرنسيين أشد الضربات ٠ بل ان عددا من ضباط الجيش الفرنسى فى الجزائر قد انضم الى المجاهدين ونقل لهم كثيرا من الأسرار الحربية الخاصة بالجيش الفرنسى ومواقعه فازدادت ضربات المجاهدين شدة واحكاما ٠

ويضم جيش التحرير الجزائرى عددا ممن سبق لهم العمل فى صفوف الجندية الفرنسية حيث أجادوا النظم العسكرية وأساليب القتال ٠
ويعتمد الجيش الجزائرى على عدد كبير من المجاهدين الخبراء بحرب العصابات وقد استطاع جيش التحرير فى خلال هذه السنوات الأربع السيطرة التامة على المناطق الجبلية فى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى ٠

ويحرص المجاهدون على اغراء الجنود الفرنسيين حتى يوردوهم موارد الهلاك فى الغابات والمناطق الجبلية بعد أن يقعوا فى الكمين المنصوب لهم ٠ ولقد أحال المجاهدون حياة المستعمرين جحيما لا يطاق حتى أن الأوربيين المقيمين فى المدن أصبحوا لا يهنأون بالعيش لحظة ٠ لأن المجاهدين يهجمون عليهم دائما فيحرقون دورهم ومسارحهم ومطاعمهم ويضربونهم بالقنابل اليدوية والأسلحة الأتوماتيكية أما الجنود الفرنسيون فانهم فى حالة دائمة من الذعر والهلع ٠

والجزائريون ، رغم الاستعدادات العسكرية الضـــخمة ، مهرة أذكياء فهم يعرفون كيف يحافظون على الاتصال بمراكزهم فى كل وقت ، فضلا عن أنهم يقتحمون المعسكرات الفرنسية فى مهارة عجيبة وينجزون عملياتهم الحربيـة بمهارة فائقة ٠

كما صنع الجزائريون شبكة بالغة الدقة والقوة ، أقلقت فرنسا ،وأدخلت الرعب فى قلوب جنودها ، وقد ضمت هذه الشبكة جميع فئـات الشعب من الطفل الى الشاب فالشيخ مضافا الى ذلك العدد الهـائل من النساء اللواتى غيرت الحرب التحريرية نفســياتهن وأطلقتهن فى صميم المعـركة مجندات لا يهبن الموت ٠ يقاتلن فى كل مكان ويحملن الســلاح فى المدن والقرى وفى أعالى الجبال ٠

وقد أدى اشـتراك المرأة الجزائرية الى نتائج ضخمة ، وقصـة جميلة بوحريد وزميلاتهـا دليل على مدى أهمية الدور الذى تقوم به المجـاهدات الجزائريات ٠

يقول جون بول سارتر : ان الفرنسيين يمارسون فى الجزائر أبشع ضروب القتل والتعذيب والاجرام وينفذونها بطريقة منظمة ومنسقة يعلم بها الجميع ويقرونها ابتداء من لاكوست الى أصغر فلاح فى أقاصى الأفيرون ٠

لقد أصبحت فرنسا جـلادا فى الجزائر فما أسـعد الذين ماتوا دون أن يضطروا الى أن يوجهـوا لأنفسهم هذا الســؤال : هل أتكلم اذا انتزعوا أظافرى !!

ان فرنسا التى ذاقت ذل الاســتعمار فى الحرب العالمية الثانية بعـد أن تهاوت سريعا تحت أقدام الألمان ، تستأسد الآن على شعب صغير مكافح يريد أن يظفر بحريته واستقلاله ٠

وتقوم فرنسا فى الجزائر بأعمال قمع عسكرية واســعة النطاق منتهكة بذلك اتفاقية تحريم ابادة الجنس التى وقعتها هى والدول التى تســاعدها بالسلاح والعتاد فى عام ١٩٤٨ وهى الاتفاقية التى أقرتها الأمم المتحدة فى ١١ ديسمبر ١٩٤٦ والتى تنص على « ان ابادة الجنس هو انكار لحق الوجـود لمجموعات بشرية بأجمعها كالقتل وهـذا الانكار لحق الوجود يتنافى مـع الضمير الانسانى ويصيب الانسانية بأضرار جسيمة » ٠

وفى الجزائر مليون مستوطن فرنسى يضعون العقبات فى طريق اتفاق فرنسا مع زعماء الجزائر ويمنعون تسعة ملايين جزائرى من الحصول على حقهم الشرعى . وقد أجرت فرنسا عدة محاولات لوقف اطلاق النار . ولكنها كانت تحاول أن تخدع الجزائريين عن حقهم الكامل ولذلك رفض الجزائريون أى حل لا يحقق حريتهم أو يقيدها بأى قيد .

ولقد قام الفرنسيون بمؤامرة دنيئة عام ١٩٥٦ حيث أعلنوا قبولهم الدخول فى مفاوضات مع الجزائريين فى روما بواسطة تونس ومراكش . ولكن فرنسا لم تلبث أن ألقت القبض على خمسة من الزعماء الجزائريين كانوا فى طائرة متجهة الى تونس لاجراء هذه المفاوضات وزجت بهم فى السجن .

كما تحاول فرنسا اقامة اتحاد افريقى يضم مراكش وتونس والجزائر ، وانشاء سوق مشتركة وخلق الدولة الافريقية الأوربية المزعومة .

وقد عرضت قضية الجزائر على الأمم المتحدة فى ١٥ فبراير ١٩٥٧ وتحدث المتحدثون عن الموقف فى الجزائر وما يسببه من الآلام والخسائر فى الأرواح وأوصت بأن يتم الوصول الى « حل سلمى ديمقراطى عادل » مشبع بروح التعاون على أن يتحقق ذلك بالوسائل الملائمة طبقا لمبادىء الأمم المتحدة . ولكن فرنسا تجاهلت هذا النداء واستمرت فى عمليات الابادة الاجرامية .

ولكن الثورة الجزائرية مضت فى طريقها حتى دخلت فى دورها الضخم حين بدأ الهجوم على فرنسا فى عقر دارها . ومحاربتها فى عاصمتها نفسها وذلك بعد أن أعلن ديجول دستوره الزائف الذى يجعل من الجزائر جزءا من فرنسا .. كما جاء اعلان الجمهورية الجزائرية وتشكيل الحكومة المؤقتة فى القاهرة فى ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ ردا قاسيا على فجور ديجول .

وقد رفع هذا من الروح المعنوية للمجاهدين الجزائريين الذين أصبحوا جميعا مدنيين ومقاتلين ــ رجالا ونساء ــ أصبحوا الآن يعرفون أن الجزائر هى بلادهم وحدهم وأن الأرض التى كان يختطف خيراتها المستوطنون الأجانب ستصبح لهم وحدهم .

واليوم والثورة الجزائرية فى مستهل العام السابع لها ليس أروع من أن تردد قول روبرت دونى « اليوم أو غدا سيركع الاستعمار الفرنسى تحت أقدامه ويحمل عصاه على كتفه ويرحل . لقد آذنت شمس الاستعمار بالمغيب فى افريقيا التى استيقظت من سباتها العميق » .

أو قول « زادرا فوبنتشار » :

ان الرصاص الذى دوى لأول مرة فى ٢ نوفمبر ١٩٥٤ أى فى اليوم الأول الذى اندلعت فيه نيران الثورة الوطنية فى الجزائر لن يسكت أبدا ٠

سيظل الرصاص ينطلق فى كل مكان ٠٠ لن تتوقف المعـارك أبدا الا اذا أقرت الاستعمارية الفرنسية حق الشعب الجزائرى فى الحرية والاســتقلال وتقرير المصير ٠

وبعد ٠٠ فان الفجر قد اقترب ووأشك الضياء أن يغمر جبال الأطلسى ٠

قناة السويس تعود للعرب

٢٦ يوليو ١٩٥٦

عندما وقف « جمال عبد الناصر » فى ميدان المنشية عشية يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ليلقى ذلك النبأ الخطير الذى هز العالم . نبأ تأميم شركة قناة السويس . واعادة القناة للعرب كان الأمر أخطر من أن يكون عودة قطعة من أرض مصر اليها . أو تحرير مرفق من المرافق التى كانت فى يد الاستعمار منذ وقع « سعيد » مرسومها فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٥٤ عند بدء حفرها فى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ أو افتتاحها للملاحة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أو سرقة بريطانيا لأسهم مصر فى ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ أو محاولة تجديد مدتها أربعين سنة أخرى فى ٤ فبراير ١٩١٠ .

وكان الأمر أعمق من ذلك وأجل خطرا . لقد كان حفر الغرب لقناة السويس والاستيلاء عليها يمثل مؤامرة ضخمة يراد بها سحق القومية العربية وتحطيم القوة الكامنة فى الشرق كله بحيث يظل الاستعمار الغربى مسيطرا على المنطقة أبد الآبدين . فاصلا بين آسيا وافريقيا انفصالا لا سبيل الى عقد وحدته ، ذلك أن الأستاذ مصطفى الحفناوى الذى يعد بحق مؤرخ القناة قد كشف عن وثائق موجهة منذ القرن السابع عشر الى امبراطور فرنسا تحمل فكرة حفر هذه القناة تأكيدا للصليبية فى أرض العرب واقرارا لعبودية هذه المنطقة فى يد الاستعمار .

كتب هذه الوثيقة المركيز (دارجنسون) الذى قال : « ان مشروع قناة السويس مشروع صليبى ومن ميزاته التجارية العظيمة امكان حفر قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر وتكون ملكا مشتركا للعالم المسيحى » .

وقد تحقق لفرنسا الحصول على فرمان حفر القناة عن طريق المغامر الأفاق « فرديناند دى ليسبس » الذى كان صديقا حميما لسعيد .

وقد حصل دى ليسبس على امتياز القناة بقفزة حصان !! ذلك انه لفت أنظار رجال سعيد بمهارته فى ركوب الخيل فعندما أهدى له سعيد جواده وثب به فوق حاجز من الأحجار على مرأى من قواد الجند من حاشية سعيد فأعجبوا به . وكان هذا من عوامل نجاحه فى الحصول على امتياز حفر القناة .

هذا ما قاله دى ليسبس فى مذكراته : « لقد جمع سعيد باشا قواد جنده وشاورهم فى الأمر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل المثقف العالم، انحازوا الى جانبى ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع بادروا الى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه !! » ٠

ولعل أبرز ما يلفت النظر فى قضية القنال هذا الرقم الضخم الذى فقدته مصر فى الحفر والذى سيق اليها عن طريق السخرة والكرباج دون أن يدفع له مليم واحد ٠ فقد ظلت جموع العمال تساق من كل مكان فى أرض مصر من ٢٥ ابريل ١٨٥٩ عندما ضرب أول معول فى الأرض التى تجرى فيها القناة بالقرب من بور سعيد الى يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وهو يوم فتح القناة ٠ خلال عشر سنوات كاملة ٠

كان يقدم شهريا ثلاثون ألفا يعملون ثم يعودون عندما ترد الدفعة الثانية وكان لا يرجع منهم عادة الا نصفهم على الأكثر ٠ فقد كانوا يصابون بالأوبئة والأمراض ، ويموتون من الجوع والكرباج ٠

وقد سجلت الوثائق المحفوظة فى مقر شركة القنال فى باريس أن العمال المصريين كانوا يضربون بالسياط وأن من مات منهم أثناء العمل كان يدفن تحت التراب الذى يخرجه معوله ٠ وقد بلغ عدد العمال المصريين الذين لم يعودوا الى أهلهم أكثر من ١٢٠ ألفا ٠

وقد كتب المؤرخ (ارنولد ولسون) المعاصر لحفر القناة والذى شاهد أعمال الحفر فى بور سعيد مقالا اعترافا بفضل هؤلاء الضحايا ، جاء فيه : « انه ينبغى أن يقام لهم تمثال من المرمر الشفاف كتمثال الجندى المجهول ٠ وقد جحدت الانسانية فضلهم كما جحدت العناء الذى لاقوه » ٠

ويشترك فى قصة قنال السويس رجال كثيرون منهم أحمد عرابى وسعد زغلول ومحمد فريد ٠

أما أحمد عرابى فقد كان منتصرا فى كفر الدوار ٠ فلما أراد أن يردم القناة ليؤمن الجانب الشرقى خدعه دى ليسبس الذى كان قد وصل الى الاسكندرية وأرسل الى عرابى يقول انه ضامن ومتكفل بمنع الانجليز من اختراقها ما دام فيه عرق ٠ وعندما تنبه عرابى الى خدعة دلسبس وأصدر أمره بردم القناة ، كان الانجليز قد اقتحموها فعلا قبل أن يصل الأمر الى رجاله ٠

ونشأت فكرة مد امتياز قناة السويس ٤٠ سنة أخرى تنتهى سنة ٢٠٠٨. وهى فكرة غادرة أرادت بها بريطانيا الابقاء على نفوذهـا فى مصر أطول وقت ممكن . وقد تمكن محمد فريد من الحصول على نسخة من المشروع فنشرهـا فى جريدة اللواء ففضح بها أسـاليب الاستعمار وأحدث ضـجة كبرى . واضطرت الحكومة الى تقديم المشروع الى الجمعية التشريعيـة ، ودافع عنه سعد زغلول وزير الحقانية وحده ، وكان الشعب كله يقف خارج القاعة يعلن سخطه ويطالب بسقوط المشروع . وقد اضـطر النواب تحت ضـغط روح الشعب الى رفض المشروع .

وعندما اقترب موعد نهاية أمد الاتفاق بدأت مؤامرات الغرب لاغتيال حـق مصر فى القناة . ولكن « الرجل العملاق » اسـتطاع أن يضرب ضربته فى الوقت المناسب . فيحرر القناة ، ويذهل الغرب ويبدد أحلامه .

واذا كان للقناة قصة فان لها أيضا معركة .. هى معركة السـويس التى هزمت بريطانيا وفرنسا ..

معركة السويس

هزمت بريطانيا وفرنسا

تعد معركة السويس من أخطر معارك القومية العربية ، فقد تجمعت فيها الدول الكبرى حتى تقضى على القوة النامية فى الأمة العربية وتسحقها . وكانت مصر قد هزمت بريطانيا وأملت عليها شروطها وأجبرتها على الجلاء من مصر بعد قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وما تبعها من عمليات ايجابية ضد القوات البريطانية خارج المعسكرات وداخلها لتدمير الروح المعنوية لهذه القوات وللانتقام من حوادث هذه القوات ضد المواطنين ومقاومة أعمال تهريب المواد التموينية للقوات البريطانية . وكان ينظم حركة المقاومة فى منطقة القنال انما هو الارهاص بخوض معركة كبرى ضد قوات بريطانيا على نطاق واسع اذا رفضت الخروج من مصر ، وقد عاش الانجليز فى جحيم خلال هذه الفترة حتى اقتنعوا ان بقاءهم أصبح من المحال .

وكانت المنشورات المصرية داخل المعسكرات تقول « ستموت آجلا أو عاجلا بيد الفدائيين . قتلك حلال . ودمك مباح » هذه المنشورات كانوا يجدونها فى منازلهم ومكاتبهم وملصقة خلف ظهورهم وأرسلت الى ذويهم فى بلادهم .

وأطلق المصريون فى ديسمبر سنة ١٩٥٣ أن الفدائيين سيقومون بهجوم عام ليلة رأس السنة فانتابت القوات البريطانية حالة من الفزع ، والذعر ، وانهارت روحهم المعنوية وبدأت عمليات الفدائيين خارج المعسكرات . وانتشرت الكمائن حول المعسكرات ، وقطعت عنها كافة خطوط المواصلات وتعددت عمليات خطف الجنود وقتلهم فاستحال على الانجليز الخروج من معسكراتهم . وأصبحت هذه المعسكرات سجونا مغلقة عليهم ..

واتصلت أعمال النسف والقتل داخل المعسكرات ، فنسفت المنشئات والمعدات والمطارات وأشعلت الحرائق فى المخازن .

واضطر الانجليز الى أن يخرجوا ، كانت قوات القناة تقرب من مائة ألف جندى .. وفى ١٦ يونيو ١٩٥٦ كان آخر جندى بريطانى قد غادر أرض مصر بعد أكثر من سبعين عاما (١١ يوليو ١٨٨٢) .

وكانت مصر قد أعلنت سياستها الحيادية ، وصدر دستورها معلنا انهــا جزء من الأمة العربية ، وكسرت قيد السلاح .

ووقف العالم الغربى يتآمر . وأعلنت أمريكا سحبهــا لتمويل مشروع السد العالى .. وكانت ضربة .. وردت مصر على الضربة بأقسى منها ..

أعلنت تأميم قناة السويس .

ففى ليلة ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس وفى نفس هذه اللحظات كان العلم المصرى يرتفع عاليا فوق مقر الشركة . ثم دوت صفارات البواخر واختلطت بأجراس الكنائس وهى تدق ..

وبذلك عادت القناة الى مصر ، وقد كانت فى الأصل مفتاح الاحتلال .

واهتز العالم كله للنبأ ..

وعم أوربا الذعر ، واقترن اسم القناة بالسد العالى .

وكانت مصر قد قدمت للقناة ١٢٠ ألفا من أبنائها ، ماتوا فى ثرى القناة . وقد استغرق حفر القناة عشرة أعوام ١٨٥٩ ـ ١٨٦٩ واستخرج ٧٤ مليون متر مكعب من الرمال والأحجار مما يعد فى حجم الهرم الأكبر . وكان أجر العامل لا يزيد على قرشين ، وكان لهذا العمل أثر بعيد المدى فقــد نقصت الأيدى العــاملة وفشلت زراعة القطن ونقص محصوله الى حـد كبير وقال المؤرخون ان هؤلاء العمال كانوا يسامون شر أنواع القســوة حتى انهم كانوا يموتون كالذباب ، والذين كانوا ينجون من الموت منهم كانوا يظلون عـــدة أسابيع لا يستطيعون القيام بأى عمل لما انتابهم من ضعف .

وقد كان العمال الذين يموتون يدفنون بثيــابهم دون أن يعوض أهلهم . وقد بلغ الأمر انه فى نسف احدى المناطق قرب بحيرة التمساح بالديناميت أن تطايرت أشلاء أربعين عاملا مصريا .

وكانت القناة بالنسبة للاســـتعمار وأوربا حلما من أحــلام السيطرة والاستعباد ، حتى لقد بلغ من الأمر أن الفيلسوف الألمانى لبينز طلب مقابلة

الملك لويس الرابع عشر وسلم اليه رسالة قال فيها : انه لا يوجد بين أجزاء الأرض جميعها بلد يمكن السيطرة منه على العالم كله وعلى بحار العالم كله غير مصر • وقدم له مشروعا لغزو مصر •

وقد حاول نابليون عندما جاء الى مصر أن يبحث عن وسيلة لخلق ممر من برزخ السويس يصله بالهند •

حتى جاء دى ليسبس فنفذ الفكرة عن طريق صديقه الوالى سعيد باشا • وبدأت الشركة فى حفر القناة برأس مال لا يتجاوز نصف مليون جنيه بينما تكلف انشاء القناة ١٦ مليون جنيه وقد تحملت مصر الفرق •

ثم لم تلبث بريطانيا أن اشترت أسهم القناة ، عندما علمت بأن اسماعيل فى حالة من الضيق المالى ، ولما لم يجد دزرائيلى وسيلة سريعـــة لذلك وحتى لا ينتظر موافقة البرلمان اتصل باللورد روتشلد اليهودى واقترض منه أربعة ملايين من الجنيهات اشترى بها نصيب مصر من الأسهم •

ومن قناة السويس احتل الانجليز مصر وهزموا عرابى •

وظلت شركة قناة السويس وكر المؤامرات والعدوان على الوطنية المصرية خلال حياتها الطويلة •

وعادت القناة الى مصر وبدأت معركة السويس ••

وصمدت مصر فى معركة المؤامرات ، وأدارت القناة بمهارة ، وعندما خرج المرشدون الأجانب كان كل شىء معدا ليسير العمل طبيعيا ، وفشلت مؤامرة تخريب العمل بالقناة •

هنالك لم تجد بريطانيا وفرنسا من وسيلة غير العدوان المسلح •

وجاء العدوان فاستقبله المصريون ببطولة نادرة : جيشا وشعبا • وخير ما يقال فى هذا ما شهد به الأعداء :

كتب « بيتر ودوز » مراسل صحيفة ديلى ميرور البريطانية الذى نزل مع القوات التى هبطت بالمظلات فى مطار الجميل يقول :

« لم يكد يظهر جنود المظلات الهابطون من الطائرات حتى تحولت سماء بور سعيد الى جحيم مستعر ، تختلط فيه أصوات المدافع المضادة للطائرات والمدافع الرشاشة والبنادق . وكان الجنود ينزلون فوق هذه النيران المتأججة التى كانت تحدث صريرا رهيبا وأصواتا مدوية ..

وفى الوقت الذى بدأ يهبط فيه جنود فرقة المظلات البريطانية المعروفة باسم الشياطين الحمر الى مطار الجميل امتلأ الجو بالمظلات المتعددة الألوان فكان منها البيضاء والسوداء والخضراء والكاكى وانطلقت المدافع المضادة للطائرات والمدافع الرشاشة ومدافع الدبابات والأسلحة الصغيرة فأحالت الأرض الى جحيم من الرصاص الملتهب ..

كان المصريون المدافعون عن المدينة فى انتظارنا فى كل مكان وكان بعضهم يقبع فى خنادق صغيرة ..

وقام الشياطين الحمر بالعملية فى هدوء كأنها احدى عملياتهم التدريبية وحينما أخذ رجال الفرقة يشقون طريقهم لاحتلال برج المطار كان الكثير يسقطون ويحملون زملاؤهم ..

وفى خلال ثلاثين دقيقة وعندما أخذ رجال الفرقة يتجمعون لملاقاة المدافعين عن المدينة امتلأت المحطة المؤقتة بالجرحى والمصابين .

وكان حاملو النقالات يذهبون الى أطراف المطار ويعودون ونقالاتهم محملة بالجنود المصابين ..

وكان حاملو النقالات يذهبون الى أطراف المطار ويعودون ونقالاتهم محملة قذائف المصريين وشظايا القنابل تخرق نوافذ صالة العمليات ..

وعلى الرغم من نيران الدبابات التى تملكها القوات المصرية أخذت قواتنا تتقدم ولكن مدافع هذه الدبابات استطاعت أن توقف زحف جنود المظلات نتيجة للنيران الشديدة التى كانت تطلقها . ولم يكن لدى قوات المظلات البريطانية سوى عدد قليل من المدافع المضادة للدبابات ..

وقال قائد فرقة المظلات الذى قاد عملية النزول الى مطار الجميل ان هناك لدى المصريين من الدبابات أكثر مما كنا نظن » .

وأقامت قوات العدوان ٤٨ يوما فى بور سعيد لقيت خلالها أعنف مقاومة فقد حولت منظمات الفدائيين وفى مقدمتها منظمة (هاتاشاما) حياة الانجليز والفرنسيين الى جحيم مستمر ..

طوال الليل كانوا فى معارك مع فرق الصاعقة ، معارك فى كل المعسكرات. وفى النهار كانت المعارك تنتقل الى الشوارع مع الدوريات ..

وأدت (هاتاشاما) دورها ، سخرت بقوات العـــدوان وتحـدت دباباتهم وأسلحتهم ، واسمها مشتق من كلمة « الهيئة التنفيذية للمقاومة الشعبية » وكانت لمنشوراتها أثر بعيد فى الذعر الذى ســاد أوساط القوات المعتـدية حتى أن عبارات العداء كانت تكتب على الحوائط والشوارع والمبـــانى التى يقيمون بها وعلى سياراتهم ذاتها .

وحدثت معارك رهيبة قبل انسحاب القوات المعتـــدية ، ففى كل شبر من أرض بور سعيد كانت هناك دماء وشهداء ..

وأعلنت القوات المعتدية انسحابها عندما لم تجد سبيلا الى البقاء . وعندما بدأ الانسحاب خرجت المدينة كلها تودعهم بالرصـــاص ، حمل الفـــدائيون أسلحتهم وخرجوا يطلقون الرصاص فى الهواء ..

ولأول مرة وزع على الشعب نصف مليون قطعة سلاح ، ووزع هذا العدد من السلاح على الشعب من الاسكندرية الى أسوان فأصبحت مصر تمثل جيشا متحدا متضامنا ..

ووقفت الأمة العربية كلها مع مصر ، ونسفت آبار البترول فى ســــوريا وليبيا والكويت ..

وانتصرت مصر وانهزم أعداؤها ..

عندما أضاءت بورسعيد أنوارها فى عيد النصر

يحتفل فى ٢٣ من ديسمبر من كل عام بعيد النصر • تستعد بور سـعيد الخالدة لهذه المناسبة استعدادا ضخما انه اليوم الذى أضاءت فيه الأنوار بعد ثمانية وأربعين يوما من الظلام •

لقد سجلت بور سـعيد بطولات خالدة فى معركتها مع العدوان الثـلاثى الغادر • ولا تزال هذه البطولات حية نابضة • لقد ردت الغزاة وقالت لهم لن تمروا ••

ولقد صور الرئيس جمال نزول القوات المعتدية فى بور سعيد فقال ان أى معتد يستطيع أن يقيم رأس جسر فى أى مكان ولكن ليس معنى هذا انه انتصر فان العبرة بالخطوات التى تلى ذلك •

ولقد وقفت بور سعيد فى وجه العدوان موقفا حاسما • ويكفى أن نذكر من صور البطولات « الطوبجى » محمد ، الذى يطلق مدفعه المضـاد للطائرات دون توقف وبعد أن سكتت جميع المدافع • فألقى عليه الأعداء مائتى قنبلة مرة واحدة •

وقصة « جواد » البطل الذى لطخ جبين فرنسا بالعار • هذا الشاب الذى واجه الدوريات الفرنسية بسيل من الرصاص خيل اليهم معه انهم ازاء فرقة كاملة ، وقد ظل يضرب حتى نفدت ذخيرته ، لقد كان جواد يحمى انسحاب اخوانه من الفدائيين ، ويصد عنهم ملاحقة الفرنسيين بمفرده ، والدماء تسيل من كتفه وساقه • وعندما أيقن أن زملاءه لابد وانهم قد وصلوا الى معسكرهم وكانت قواه قد وهنت استسلم للأعداء •

أما بور سعيد فقد رفضت أن تتعاون مع المحتلين • رفض التجـار فتـح محالهم • هدد « ستكويل » باعتقال المسئولين المصريين فى المدينة ليتسنى لهم تشغيل العمال بالقوة ولكن أحدا لم يرضخ لطلباته وعرضوا ثلاثة جنيهـات أجرا للعامل ولكن أحدا لم يقبل • وقام الانجليز بالسطو على المحـال المصرية أثناء الليل • وخطف الفدائيون المصريون « مور هاوس » الضابط البريطانى•

وتمت عملية الخطف فى رائعة النهـــار بطريقة مذهلة ، فى وسط الدوريات البريطانية ٠

كان الكولونيل الانجليزى يركب ســـيارة مزودة باللاسلـكى قرب مبنى المباحث الجنائية فى الحى الأفرنجي بشارع رمسيس ٠ وتقدم أحد الفدائيين واعترض طريق السيارة بدراجة يركبها ثم فجأة حدث شىء سريع ، قفز أربعة شبان على السيارة وانطلقت بسرعة جنونية ٠

ونزلت الدوريات المسلحة تحاصر الحى العـــربى كله ، فتشت البيوت ، وقامت بحركة ارهابية ضخمة واعتقلت عددا كبيرا من الشباب ٠

ولا تزال ماثلة فى الأذهان قصة الشاب الذى لم يتجاوز السادسة عشرة الذى أسقط بمدفعه طائرة نفاثة من طائرات حلف الأطلنطى وكان يقودالطائرة طيار فرنسى وأبى الطالب (حلمى امام) أن يحتفظ لنفسه بالدبلة التىوجدت فى أصبع الطيار بعد قتله ٠ وكانت قد قدمت اليه على سبيل التذكار ٠ولكنه أرسلها الى زوجة الطيار وأرفق بها رسالة قال لها فيها « لقـد قتلت زوجك لا لأنى أردت قتله ٠ وانما لأن الذين يحكمون بلادك قد دفعوا به وبغيره الى مثل هذه الحرب الغادرة ٠٠ فلن يجد هؤلاء غير هذا المصير » ٠

والطبيب رمزى الذى كان يعمل مع زملائه فى أحد مستشفيات بورسعيد ، لانقاذ الجرحى الذين ازدحم بهم المستشفى ٠ وجاءه نبأ استشهاد ابنـــه فلم يذرف دمعة واحــــدة ٠ ولم يتوقف عن العمـــل لحظة ، ولم ينبىء زملاءه باستشهاد ابنه ٠

وقصة « زكية » زوجة البواب التى قتلت أربعة من الجنود المعتدين فى حى العرب وكانت تقيم مع زوجهـــا تحت السلم فى العمـــارة المجـاورة لمكتب التلغراف ٠ وكان زوجها يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام باب العمارة بعد أن أصيب برصاص المعتدين وهو يردد « خذى البندقية يازكية والحقيهم الاندال دول » ٠

وتناولت الزوجة البندقية من يده وانطلقت تطارد أربعة من جنود الأعداء ٠ حتى أدخلتهم مكتب التلغراف وخرجت بعد أن قتلتهم جميعا ٠

وبينما كانت القوات المعتدية تقذف المدينة بالحمم لتنزل أسلحتها الثقيلة يوم ٧ نوفمبر وقد أخذ المدافعون الوطنيـــون يتراجعون الى أماكن حصـينة تحميهم من القنابل الثقيلة وفى هذه اللحظة الحرجة شقت الصفوف سـيدة مجهولة ترتدى ملابس تدل على أنها من كرائم العائلات وصرخت فيمن حولهـا من الرجال هاتفة :

« تقدموا الى الأمام • زحزحوا العــــدو •• حتى ننقذ جرحاكم » وكانت صرخاتها لها فعل السحر فانطلق الناس بأسلحتهم يضربون ويقتلون بجنون حتى نجحوا وتراجعت قوات الأعداء الى منافذ الشارع وأمكن نقل الجرحى من الوطنيين •

وخطف الفدائيون جنود الاستعمار •• ما من دورية كانت تسير فى عشرة أفراد الا وتكتشف عنـدما تعود اختفــاء جنديين أو ثلاثة • ثم بدأوا خطف الضباط • وضربوا الضـــابط وليمز برغيف عيش فيـــه قنبلة • وحرقوا سيارات الضباط ورفعوا صورة جمال عبد النـــاصر فى كل مكان حتى مبنى القيادة البريطانية نفسه • فاذا رفعت هذه الصور عاد الفــدائيون فوضعوا غيرها فى نفس المكان •

ووزع الانجليز صفارة على كل منزل • وقالوا انه اذا حـــدث أى حادث بالليل فعليهم أن يطلقوا الصفارة فتسرع الدوريات الى مكانها اذا كانت هناك حالة ولادة أو مرض مفاجيء • ولكن الصفافير استعملت لغرض آخر • كانت الصفارة تنطلق وتسرع الدوريات الى مكانها • ويكون فى استقبالها عدد من الفدائيين يجهزون على معظم الجنود ثم يختفون فى الظلام •

ولم تنقطع مهاجمة الدوريات ليلة واحدة •

وكانت الأسلحة والذخائر توزع بالنهار فى الأحياء التى يتقرر مهاجمـــة الانجليز فيها • كانت العملية تتم أمام الانجليز والزوجات كن يقمن بها •

كانت كل زوجة تضع بعض القنابل فى العربة التى تحمـــل أطفالهـا • وتغطيها بالمرتبة • ثم تضع طفلها فوقها وتمشى فى الشوارع توزع القنـابل وتمر فى هذه الأثناء مئات الدوريات باحثة عن الأسلحة •

وحدث مرة أن أسقط طفل لعبة كان يلعب بهـا • وكانت أمه قد وضعت تحته فى العربة أكثر من خمسين قنبلة يدوية •

وتصادف مرور دورية بريطانية •• شاهد قائدها اللعبـــة وهى تسقط وتقدم من السيدة • وتسمر الناس الذين فى الشــــارع فى أماكنهم • كانوا يعرفون مهمة السيدة •• ان عثور الضابط الانجليزى على القنابل ســـوف يؤدى الى قتلها هى وطفلها •• فى لحظات تحطمت أعصاب الناس •• شخص واحد لم يهتم بالأمر •• هذا الشخص هو السيدة نفسها •• ظلت الابتسامة تتألق على شفتيها • وشكرت الضابط برقة عنـــدما انحنى وتناول اللعبـة وأعطاها للطفل • وانصرف الضابط مع دوريته وتنفس الناس الصعداء •• وتابعت السيدة سيرها •

تحية من أعماق سبعين مليونا من العرب لبور سعيد وأهلها وشهدائها •

هزيمة اسرائيل في سيناء

٩ يناير ١٩٥٧

كان انتصار مصر فى معركة السويس وهزيمة اسرائيل وفرنسا وبريطانيا يحمل معنى القوى الروحية التى تفرض سلطانها وتؤازر الحق وتحطم الباطل ٠٠ فقد كان العدوان الثلاثى يحمل قوة ضخمة وأسلحة رهيبة ٠٠ ولكن مصر كانت تحمل بقيادة بطلها رائد القومية العربية جمال عبد الناصر ، قوة أشد ضخامة من السلاح : هى الايمان والثقة بنصر الله ، الذى يؤيد أصحاب الحق بقوته الخفية عندما تعجز القوى المادية ٠٠ ولطالما انتصر العرب والمسلمون على قوى أضخم منهم ٠ وفى عدد من المعارك ٠ وذلك بقوة الايمان وتأييد الله « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ٠

كان هذا اليوم هو نهاية العدوان الاسرائيلى الغادر على سيناء ٠ وكان قد بدأ فى ٢٩ أكتوبر ٠ تمهيدا للعدوان البريطانى الفرنسى ٠ فقد اندفعت اسرائيل فى هجوم غادر على الأراضى المصرية واحتلت بعض المخافر الأمامية المجردة من السلاح فى الكونتلا ونخل ، مستهدفة جر الجيش المصرى الى المواقع النائية ومهيئة الفرصة بذلك للقوات البريطانية والفرنسية فى النزول الى بور سعيد وعزل الجيش فى الصحراء للقضاء عليه ٠

وقد انكشف هذا الغرض ، وعاد الجيش سالما بعد أن كبد اسرائيل خسائر فادحة فى مواقع عدة كانت أهمها موقعة أبى عجيلة التى وصفها الرئيس جمال فى قوله : « استطعنا فى حماية قتال مجيد فى أبى عجيلة أن نسحب جيشنا سليما من سيناء ٠ كانت خطة العدو ترمى الى عزل الجيش فى الصحراء وتدميره » ٠

وكان الهجوم الاسرائيلى ذا شعب ثلاث : هجوم على محور الطريق الرئيسى من العوجة الى أبى عجيلة ــ العريش ــ وهجوم على الطريق الساحلى بعزل غزة ورفح ويتجه الى الاسماعيلية ٠ وهجوم على الطريق الجنوبى من الكونتلا الى نخل ثم ممر متلا فالسويس ٠

وقد أفنت قواتنا الجوية الهابطين بالمظلات فى ممر متلا • وأسقطت فى يومين ثلث القوات الجوية الاسرائيلية • وبدأت تسيطر على سماء المعركة • ووصف الاسرائيليون دفاع مصر فى جنوب سيناء فقالوا : ان الطائرات الميج المصرية كانت تهاجم كالكلاب المسعورة وأنهم ـ أى الاسرائيليون ـ تكبدوا خسائر فادحة •

وفى أبى عجيلة قصة بطولة : فقد هاجمها العدو مساء ٣٠ أكتوبر • ولم تستطع هجمات الليل ضد أبى عجيلة أن تؤثر فيها • ولم تستطع القوات الاسرائيلية أن تتغلب على مقاومة القوات المصرية المدافعة عن أبى عجيلة والتى كان العدو يريد أن يقضى بأسرع ما يمكن على مواقعها الدفاعية وبهذا يندفع غربا نحو الاسماعيلية فى عملية سريعة خاطفة وفى الليلة التالية بدأ هجوم ليلى ضد أبى عجيلة • وطلع الصباح لينسحب العدو بعيدا عن نيران أبى عجيلة ولكنه انسحب لينظم نفسه ويبدأ هجوما نهاريا ضد الموقع مع تمهيد من طيرانه للهجوم بغارات مستمرة ضد مواقعنا فى أبى عجيلة • واستطاعت قوات أبى عجيلة أن تسقط ثمانى طائرات • وفشل هجوم العدو بعد أن تكبد خسائر كبيرة بلغت أربعين دبابة فضلا عن خسائره فى الأفراد•

وعندما استقر الرأى على الانسحاب السريع من سيناء ، كان على قوات أبى عجيلة أن تنسحب على أن تترك جماعات خلفية لتعطيل العدو •

وكان العدو قد عاود تركيز هجومه على أبى عجيلة بعد أن فشل مرتين فى الاستيلاء عليها • وفى هذه المرة كان الهجوم من الأمام ومن الخلف •

واصطدمت القوات المهاجمة من الخلف بقوة منفصلة قوامها سرية مشاة عند سد الروافعة • واستطاعت السرية أن توقف تقدم العدو ـ لقد كانت مفاجأة للقوات المهاجمة حولت العدو عن غرضه فاستدار اليها يهاجمها • أما الهجوم الأمامى الذى بدأ فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فقد استطاع أن ينجح فى الاستيلاء على جزء من الموقع استحكم فيه العدو مدعما بعربات نصف جنزير • ومع ذلك ففى أول ضوء للصباح قامت قوات أبى عجيلة بهجوم مضاد استعادت فيه المواقع من الاسرائيليين بعد أن تركوا فى أرض المعركة سبعين عربة مصفحة نصف جنزير • واستمرت قوات أبى عجيلة فى التقدم الى منطقة تجمع العدو واستطاعت أن تحتل المنطقة •

وهكذا أبدت قوات أبى عجيلة من البطولة ما أدهش اسرائيل • وقد وقع مثل هذا فى رفح وشرم الشيخ • وأمكن لأبى عجيلة بعد ذلك أن تغطى انسحاب الجيش المصرى كله من سيناء تلك القوات التى كانت تنسحب تحت ضغط سلاح الطيران الفرنسى والبريطانى والاسرائيلى •

وقد أعطت معركة سيناء الحقائق الكاملة عن جيش اسرائيل وأزالت الأسطورة الخرافية التى حاولت أن تدعيها • فان اسرائيل لم تكن تستطيع وحدها تنفيذ المؤامرة كما انها لم تستطع أن تتقدم أمام قواتنا الا عندما كانت الأوامر قد صدرت الى هذه القوات بالانسحاب بعد تدخل بريطانيا وفرنسا• كذلك لم تستطع اسرائيل احتلال أية بلدة من البلدان التى احتلتها كغزة والعريش ورفح الا يوم ٢ نوفمبر ـ وبعد أن كانت عملية الانسحاب من سيناء كلها قد انتهت •

وفى خلال معركة القنال انكشفت حقيقة الجيش الاسرائيلى بسقوط طائرة « اساف سمحونى » الذى قاد عمليات سيناء والذى وجدت أوراقه بجانب جثته • فقد جاء فى هذه الأوراق ما يثبت ضعف واضطراب قوات اسرائيل وعجز غرفة العمليات الحربية • فقد هجر كل الضباط فيها أعمالهم • كما فشل فرع المخابرات • وكانت الأوامر تصدر من القائد ولكن فرع العمليات لم يكن يتولى تنسيق النشاط • لم تكن هناك أوامر ثابتة أو تنسيق • ولم يكن القائد ولا أركانات حربه فى مقر القيادة فى بعض الأوقات •

وقد انتهزت اسرائيل فرصة انشغال مصر بالعدوان البريطانى الفرنسى على بور سعيد وقامت بعمليات تخريبية فى سيناء ـ كما أوقعت مذابح بالعرب فى غزة • واستولت على شرم الشيخ وحاولت تأخير انسحابها من هذه المناطق حتى بعد انسحاب القوات البريطانية والفرنسية فى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ •

ووجهت مصر انذارا الى اسرائيل بالانسحاب فورا الى ما وراء خطوط الهدنة وأصدرت الأمم المتحدة قرارا بانسحاب اسرائيل من قطاع غزة وشرم الشيخ فى خلال خمسة أيام ولكن اسرائيل علقت انسحابها على عقد اتفاق بينها وبين مصر والأردن بشأن المرور وطالبت بضمان الملاحة لاسرائيل بواسطة الدول الكبرى • ورفضت مصر وقاومت المؤامرات والمناورات • واضطرت اسرائيل أن تعلن عن انسحاب فورى كامل عاجل الى ما وراء خطوط الهدنة وتم ذلك يوم ٩ يناير ١٩٥٧ •

وطالب أهالى غزة بعودة الادارة المصرية الى القطاع • ولكن هل سكتت المؤامرات لقد حاولت بعض الدول أن تضع قطاع غزة تحت اشراف هيئة الأمم • وقطع جمال عبد الناصر الطريق على الإستعمار فقال : « ان أية محاولة من جانب الدول الغربية لتدويل غزة أو خليج العقبة ستؤدى الى متاعب جديدة • وأن أى تدخل فيهما هو اعتداء على سيادة مصر » •

عندما سحقنا العدوان البريطانى الفرنسى الاسرائيل

على مصر

فى الساعة الرابعة والنصف من يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ تحركت الوحدات الاسرائيلية المدرعة فى قوة وسرعة واحتلت الأرض من ناحية الكونتلا وبدأت حرب السويس ٠

انه نفس اليوم الذى حددته بريطانيا وفرنسا لاجتماع جنيف مع مصر للمفاوضة على أساس المبادىء الستة كان يوم التفاهم فحولته الدول الغربية الى يوم الغدر ٠

وكانت هناك قصة طويلة بدأت منذ ٢٦ يوليو ١٩٥٦، عندما أعلن جمال عبد الناصر نبأ « تأميم » شركة قناة السويس ٠ وكانت لطمة للغرب هزته من الأعماق ٠ ومنذ ذلك اليوم مضى يدبر مؤامراته وينقل عتاده وينذر ويتوعد ومصر تواجه ذلك كله بابتسامة وصمود وحزم ٠

كنا نؤمن بأننا على الحق فى خطوتنا الحاسمة ٠ ومضينا نشرح موقفنا للعالم كله واهتز العالم العربى كله وأعلن وقوفه مع مصر ٠ كل مكان فى العالم العربى من الخليج الى المحيط مع مصر بكل ما يملك من قوى وامكانيات وشباب يحمل السلاح !!

وأعلن جمال عبد الناصر فى حزم وايمان « سنحارب اذا اعتدى علينا » وفى مساء نفس اليوم أعلن راديو تل أبيب : ان اسرائيل بدأت هجومها على مصر وأنها احتلت ثلاثة مواقع فى الكونتلا ٠ ورأس النقب ٠ ونخل بصحراء سيناء ٠

وقال البلاغ الاسرائيلى ان الهجوم كان فى اتجاهين وأن اسرائيل استخدمت فى هجومها جنود المظلات ٠

وفى يوم ٣٠ أكتوبر وجهت انجلترا وفرنسا انذارهما المشترك الى كل من مصر واسرائيل وهو الانذار الذى وصفه أعضاء مجلس العموم البريطانى بأنه « انذار حقير » ويطلب هذا الانذار :

وقف جميع العمليات الحربية فى البر والبحر والجو وسحب جميع القوات الى مسافة تبعد عشرة أميال من القناة ٠ وأن تقبل مصر احتلال القوات

الانجلو فرنسية للمواقع الرئيسية المصرية فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس • وحدد الانذار فترة مداها ١٢ ساعة • وطلب رد الحكومتين خلالها •

واستدعى جمال عبد الناصر السفير البريطانى وأعلن اليه أن مصر ترفض الانذار وتعتبره اعتداء على حقوقها وكرامتها • وامتهانا صارخا لميثاق الأمم المتحدة •

وبينما كانت القوات المصرية تلقن القوات اليهودية درسا قاسيا فى قصص بطولات ضخمة ستظل خالدة فى سجل البطولات • أصدر الرئيس قراره التاريخى بأن ينضم الجيش الى قوات الشعب غربى القناة • وبذلك فوت على المعتدين غرضهم الاجرامى فى عزل القوات المصرية فى سيناء وسحقها •

فلما نزلت القوات البريطانية فى بور سعيد يوم ٥ نوفمبر منيت بهزيمة تاريخية من النادر أن تهزمها دولة • كانت رباطة جأش الشعب وشجاعته وبسالة الشعب والجيش وقوات المقاومة الشعبية لطمة قاسية للاستعمار الذى كان يقدر لمصر ساعات معدودة • لقد أصبحت مصر كلها ثكنة عسكرية فحملت السلاح رجالا ونساء • وشيبا وشبابا وأطفالا •

واندلعت الثورة فى العالم العربى كله فنسفت أنابيب البترول فى سوريا ولبنان والعراق (الأنابيب الممتدة من منابع البترول فى كيركوك بالعراق الى ميناء بانياس فى سوريا) وأحرق الوطنيون فى الكويت ١٨٥ بئرا من آبار البترول وتوقفت معامل التكرير •

وقد صور الرئيس المؤامرة فقال : « على وهج المصابيح المشتعلة التى كانت الطائرات المغيرة تلقيها على مطار القاهرة الدولى وكانت الغارة البريطانية الأولى عليه • رأيت المؤامرة كلها لم يكن الوهج يكشف منطقة المطار وحدها وانما هذا الوهج يكشف فى أفكارى منطقة الشرق الأوسط بأسرها •

اذن فالهجوم الاسرائيلى لم يكن هدفه الا دعوة قواتنا الرئيسية الى سيناء وقطع الطريق عليها باحتلال منطقة القناة • وبهذا يحقق العدو هدفين • الهدف الأول تحطيم قواتنا العسكرية فى شرق القناة تحطيما تاما بعد حرمانها من المساعدة الجوية ـ والهدف الثانى دخول مصر واحتلالها بدون مقاومة منظمة اذ أن مصر ستكون بغير جيش يدافع عنها • وكان واضحا أن علينا فى هذه اللحظة أن نراجع جميع خططنا •

واستقر رأينا على ضرورة الانسحاب السريع من سيناء • وتوحيد نشاطنا العسكرى كله غرب القناة •

وكان أهم جزء فى خطتنا أن يتم الانسحاب بسرعة قبـل أن يفلت الوقت ويتحقق للعدو ما أراد على أن تترك جماعات خلفية لتعطيل العدو . ولقـد شعرت على الفور ساعة أخطرت أن عملية الانسحاب قد تمت كلهـا .. ان مصر كسبت المعركة حين أحبطت خطة العدو .

وفى سيناء كانت هناك بطولات حقة : فى معارك أبى عجيلة والعريش وشرم الشيخ أثبت فيها الجنـدى المصرى ما روته عنه كتب التـاريخ فى مواقف مختلفة فى معارك ضخمة : فى نفارين وعين جالوت وحطين . وأعلنت بريطانيا عن خسارتها فى حرب السويس . وتحطم ايدن . وباعت بريطانيا أساطيلها وأصبحت من دول الدرجة الثالثة .

لقد بلغت نفقات العمليات الحربية نفسها طبقا لـمـا أعلنه ماكميلان قرابة مليون جنيه استرلينى . كما أحدث قطع أنابيب البترول التابعة لشركة بترول العراق ٢٠ مليونا من الجنيهات الاسترلينية . كما أن ارتفاع نفقات النقـل بسبب اغلاق القناة سوف يقرب من ٤٠ مليون جنيه .

ووصلت جريدة التيمز فى المحاولة التى بذلتها لتقـدير النفقات المالية القصيرة المدى للدولة ككل أى رقم يتراوح بين ١٢٠ ــ ١٥٠ مليون جنيـه . ولقد صور بول جونسون الصحفى الانجليزى معركة السويس فى عبـارة واحدة وجهها الى قومه الانجليز :

« ان زعماءنا رجال آثمون وما داموا لم يلقوا جزاءهم فسنظل نسعى جميعا بحثا وراء الحقيقة » .

وقال انورين بيفان الزعيم الاشتراكى البريطانى معلقا على هذه الهزيمـة الساحقة :

« ان العالم كله تقريبا فى دهشة وغضب وأسى من المغامرة الانجلوفرنسية فى مصر فليس من المفهوم اطلاقا كيف يمكن لرجال سياسة لهم كل هـذه الخبرة مثل انطونى ايدن وجى موليه أن يقدموا على عمل جنونى كهذا . لأنه حتى اذا قدر لمغامرتهم أن تنجح فى تحقيق أهدافهما العسكرية فانها كانت ستعتبر أيضا عملا جنونيا » .

لقد استطاعت مصر بفضل ثورتها العربية الكبرى أن تسحق ثلاث دول وأن تعطى درسا لدولة كانت منذ أكثر من مائتى سنة تسيطر على أرض العـرب تعتصر خيراتهم وتحطم مقوماتهم . فكانت ضربة السويس نهاية لها ..

أيام حاسمة

معركة حطين

٤ يوليو ١١٨٧

كانت المنطقة العربيـــة قد تعرضت للتمزق والخلافات والانقسـامات بين الأمراء والحكام مما دفع أوربا لأن تفكر فى غزوها باسم استعادة بيت المقدس وهى حجة مذهبية كاذبة استطاعت أن تجمع ببريقها عددا ضـــخما من رعايا أوربا لتسوقهم فى حملات أطلق عليها اسم الحملات الصليبية فى الشرق ٠

بدأت هذه الحملات عام ١٠٩٦ م متجهة الى بيت المقدس والشريط الساحلى لسوريا ولبنان وفلسطين حيث قامت الامارات الصليبية فى عواصم ومدن هذا الساحل : هى الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس ٠

ثم اتجهت هذه الحملات الى مصر فهاجمت دمياط والمنصورة وساقت فى ركابها ملوك أوربا وخدعت من دفعتهم اليها باسم الدين ، بينمـــا كانت فى حقيقتها تحمل فكرة الاستعمار الأول وكانت مطامعها تستهدف امتلاك هـذه المنطقة العربية ٠

هنالك استيقظت الأمة العربية ، وهزتها الأحداث وعرفت انها قد ضربت بقوة نتيجة لتفرقها وتمزقها واندفاعها فى طريق الأهـــواء والصراع ، وكرد فعل للتوقف عن حماية الثغور وتجنيد الجنود ومدها بالأسلحـــة والتأهب الدائم لمواجهة العدو المغير ٠ فكان أن هبت تقاوم ، وبدأت تنسى خلافاتهـــا لتواجه العدو ٠

وكان أول من أرسل صـــيحة اليقظة والتأهب للمقاومة هـو « نور الدين محمود » وكان عماد الدين زنكى قد استطاع أن يستولى على امارة الرها بعد أن هزم الصليبيين عام ١١٤٤ ٠

وبدأ نور الدين محمود عمله بمواجهة حملة أوربا الثـــانية فهزمها ٠ ثم واصل غاراته على الامارات الصليبية وهو الجندى الشجاع والفقيه العـالم ، وقد أتيح له أن يضم دمشـــق الى امارته (الموصل وحلب) فكانت له عونا ضخما على هجماته الظافرة ٠

ولم يكد نور الدين يموت شهيدا فى احـــدى غزواته حتى كانت الثورة العربية قد أسلمت مقاليدها الى صـــلاح الدين الأيوبى والى مصر ٠٠ الذى

تحقق على يديه اندماج الجيش المصرى والجيش الســـورى وتوحـدت مصر وسوريا فأصبحتا كفكى كماشة ضخمة على الامارات الصليبية ٠

فقد سار صلاح الدين الأيوبى الى دمشق فى سـبعمائة فارس عام ١١٧٤ فخرج اليه أهل دمشق وعسكرها ورحبوا به ٠ وسلمت له القلعة بدمشق ثم سار الى الشمال نحو حمص وحماه فسلمتا له ٠ وبذلك توحدت مصر وسوريا فكان لوحدتهما أكبر الأثر فى القضاء على الصليبيين ٠

وخرج صلاح الدين من القاهرة فى مايو ١١٨٢ وكان ذلك آخر عهده بهـا فقد بقى فى حروبه وجهاده الى أن مات عام ١١٩٣ ٠

وكان « ارناط » هو أقسى قادة الفرنجة ضراوة فى ازعاج العرب وعدائهم ٠ وكانت جنوده وأساطيله تسير فى البحر الأحمر تهاجم الحجـاج المسلمين ٠ وقد بدأ بالغدر فخرق الهدنة وأهوى على القوافل العربية وغنم منها وقتـــل وأسر ٠ ولما علم صلاح الدين نذر أن يقتله بيده ٠

واستقر رأى صلاح الدين على مواجهة الصليبيين فى موقعة فاصلة ٠ فسار الى طبرية فى ٤ يوليو ١١٨٧ وجعل يخرب فيها ويحرق ليحرض الفرنجة على لقائه ٠ وقد نجح فى ذلك فان الصليبيين تحركوا لنجدة طبرية ثم ظل يدفعهم حتى نقلهم الى منطقة جرداء ٠

وجعل صلاح الدين يدور بأعدائه حتى حاصرهم حصارا تاما ٠ ومضى العرب يحاربون حربا كلها ثبات وشجاعة واقدام ٠

ولم تلبث المعـــركة أن انكشفت عن هزيمة الفرنجـة وأسر الملك (كى) والبرنس (ارناط) وأوفى صلاح الدين بعهده فقتل (ارناط) ولم يقتـــل الملك (كى) بل أمنه ٠

ودامت معركة حطين يومين ٠ وقد أسر عدد ضخم من الفرســـان الداوية الذين فتك بهم صلاح الدين فتكا ٠

ولم يلبث صلاح الدين بعد انتصاره أن اتجه نحو (عكا) التى سلمت له وظل يواصل زحفه على المدن فتسلم له واحدة واحدة ٠ ومضى يستولى عـــلى المدن من يافا الى ما بعد بيروت ٠ وقد تجمعت فلول الجيوش الصليبية وجنـد الحصون الساحلية الى (صور) حيث تحصنوا بها ٠ وقد سار صلاح الدين اليهم فهزمهم ومضى الى القدس حيث استولى عليها وأذن لسكانها من الفرنجة بالخروج ٠ وكانت معاملته لهم آية فى الرحمة والعطف ممـا لهجت به أقلام المؤرخين الفرنجة الذين رافقوا الحملة الصليبية ٠

إعتقال لويس وطرد كرومر

مايو ١٢٥٠ ـ مايو ١٩٠٧

جمع (مايو) بين حدثين عظيمين فى تاريخ أمتنا العربية : اعتقال لويس التاسع سنة ١٢٥٠ فى المنصورة وطرد كرومر بعد ربع قرن من حكم الاستبداد فى القاهرة سنة ١٩٠٧ ، فمنذ ٧٠٠ سنة تحطمت قوة الصليبيين على ساحل دمياط ، واستطاعت مصر أن ترد هذه الحملة وتسحق جيوش فرنسا وتطوقها حول قصر السلطان فى المنصورة ٠

خرجت الجيوش الصليبية من دمياط فى نوفمبر ١٢٤٩ بعد أن توفى السلطان صالح أيوب ووصل الجيش الصليبى الى بلدة البرمون على البحر الصغير ، وتناوش الجيشان حتى أواخر يناير ١٢٥٠ ، واندفع الجيش الصليبى نحو المنصورة فى نفس الوقت الذى أعد فيه بيبرس الكمائن حول المنصورة٠وعندما دخل روبرتأخو الملك مدينة المنصورة دخول الظافر وجدها مدينة خالية من المقاومة فوزع جنوده وفرسانه فى الأزقة تمهيدا للانطلاق نحو القصر السلطانى ، لاملاء شروط التسليم ٠

وعندما اقترب من أبواب القصر صدرت الأوامر بالتطويق ، فلم يلبث الصليبيون أن فوجئوا بقوات أطبقت من كل مكان ٠ فبلغ عدد القتلى من الصليبيين ١٥٠٠ فى بضع ساعات وهربت البعثة الباقية من الجيش الصليبى بعد أن قتل روبرت شقيق لويس ٠

ثم اتسعت رقعة المعارك ٠ واستمر النصر حليف المصريين ٠ واستطاع الأسطول المصرى الاستيلاء على ثمانين سفينة صليبية ٠ ولما بدأت المجاعة تهدد الأعداء فكر لويس فى المفاوضة للجلاء عن دمياط مقابل اعادة بيت المقدس الى الصليبيين وقد رفض عرض الملك مما اضطره الى التقهقر الى دمياط ٠ ودفع القوات المصرية فى مطاردتهم وعرقلة تحركاتهم والاستيلاء على أسلحتهم واجبارهم على التسليم دون العودة الى دمياط ٠ وآوى الملك الى دار بقرية (منية مخلش) مريضا تغتاله الحمى ـ غير أن أنباء الهزيمة اضطرته الى التسليم من غير قيد أو شرط ٠ هناك تقدم الجنود حيث حملوه مكبلا بالسلاسل الحديدية الى المنصورة حيث سجن بدار قاضيها ابراهيم بن لقمان٠ كما امتلأت خيام المعسكرات بالآلاف من الصليبيين من الفرنسيين والانجليز ٠

وفرضت على الملك فدية مالية • وعلى كل واحد من الصليبيين فدية عن نفسه • تم دفعها في اليوم السادس من مايو سنة ١٢٥٠ وعندئذ سمح للملك بالخروج من البلاد وكان هذا نهاية الحملات الصليبية التسع التى هاجمت العالم العربى خلال قرنين من الزمان •

أما « كرومر » فقد طرد من مصر اثر مأساة دنشواى بعد أن أمضى ربع قرن من الزمان حاكما فعليا للبلاد ومسيطرا على الحكومة وعلى الخديو ومتصرفا فى أقدار البلاد • وكان قد جاءها عضوا فى اللجنة الثنائية قبيل الاحتلال البريطانى لمصر ، فوضع قواعد تأهيل الاستعمار للبقاء ورسم الخطط التى فرضت على الاقتصاد والتعليم والنظم الحكومية •

فلما توفى توفيق وتولى عباس رأى أن يقف ضد البريطانيين ويقاوم كرومر فأيد مصطفى كامل وآزر الحزب الوطنى ، هنالك أيد كرومر قيام حزب الأمة ، الذى كونه من الاقطاعيين وسراة البلاد الذين أطلق عليهم أصحاب المصالح الحقيقية • والذى كانت دعوته الى « مهادنة » الانجليز والالتقاء بهم فى منتصف الطريق • ومحاربة اتجاه مصطفى كامل والحزب الوطنى واتهامه بالتهييج والاثارة •• والاندفاع وراء الأهواء وقد ظل كرومر يقاوم مصطفى كامل والخديو حتى وقعت مأساة دنشواى الرهيبة التى علقت فيها المشانق قبل صدور الأحكام • والتى لم تكن الا مؤامرة انتهزت فيها فرصة موت أحد الجنود البريطانيين بضربة الشمس للتمثيل بالقرية على ذلك النحو المفزع • وقد انتهز مصطفى كامل الفرصة • فأثار العالم كله على بريطانيا ونشر فى الصحف الفرنسية والعالمية مقالات نارية حمل فيها على بريطانيا واتهمها بالاجرام والظلم والوحشية • هنالك اضطرت بريطانيا الى أن تسحب ممثلها « كرومر » من مصر •

وقد وقف كرومر فى حفل توديعه الذى أقامه له أعضاء حزب الأمة فأهان المصريين وقال : ان الاستعمار البريطانى سيبقى فى مصر الى الأبد • وصفق له خصوم مصطفى كامل وأعوان الاستعمار •

ولم يكن فى ذهاب كرومر نهاية للصراع بل كان بداية • فان الخديو عباس الذى كان يدعى فى أول الأمر انه وطنى يقاوم الانجليز ، سرعان ما تحول عن موقفه عندما عرض عليه ممثل بريطانيا الجديد « الدون غورست » خطة جديدة للتفاهم •

وبذلك برئت الحركة الوطنية من هذا الاتجاه لذى يعتمد على الأسرة الظالمة •

وهكذا خرج كرومر من مصر فى مايو سنة ١٩٠٧ مشيعا باللعنات •

معركة المنصورة

٦ مايو عام ١٢٥٠

انها ملحمة طويلة من ملاحم الصراع والكفاح والدفاع عن أرض العرب . تتابعت فيها أفواج الطامعين فوجا وراء فوج باسم الحروب الصليبية . هذه الكلمة التى خدعوا بها هذه الجموع التى قذفوا بها سواحلنا . وان لم يخدعوا بها العرب . الذين قاتلوا نصارى ومسلمين جنبا الى جنب وقدموا الضحايا . وبذلوا الأرواح وتدفق دمهم القانى على الأرض غزيرا مدرارا كانت الصفوف تتقدم فتنهار لتتقدم صفوف أخرى . تدافع عن الشرف وتذود عن الزمار .

وأحس الفرنجة بعد هزيمة حطين واستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس أن مصر هى القوة التى تقف فى وجههم فاتجهوا اليها . هنالك حشد لويس التاسع حملته الكبرى التى قصدت مصر ونزلت دمياط .

وتقدم الصليبيون على الضفة الشرقية فاستولوا على مدينة فارسكور ثم واصلوا التقدم حتى اقتربوا من المنصورة . هنالك ارتطموا بأول مانع مائى . وهو بحر اشموم حيث كانت القوات العربية ترابط على ضفته المقابلة . لا يفصلها عن العدو الا مياهه الزرقاء . وقد تأهبت بحفر الخنادق واقامة المتاريس والمجانيق وقاذفات الأحجار . واحتشدت سفن الأسطول العربى فى النيل أمام المنصورة ثم بدأ القتال وحمى وطيسه واشتد التراشق بين العرب والفرنجة . عبر بحر اشموم .

ولما أدرك الصليبيون فداحة خسائرهم اتجهوا الى عبور المانع المائى وعمدوا الى اقامة جسر كبير يعبرون عليه .

وقد حصنوا هذا العمل الحربى باقامة أبراج خشبية وقف عليها النبالة وحملة القسى لمواجهة المعسكر الغربى حتى لا تتوقف عملية العبور . غير أن قوات المقاومة العربية لم تلبث أن قامت بعمل حربى مضاد يفسد محاولة الصليبيين . فقد حفروا حفرا واسعة فى الضفة التى يقيمون فيها فكانت المياه المحجوزة من الجسر تملأ تلك الحفر مما يترتب عليه ظهور تيار سريع يتلف الشاطئين فينهار ما أقيم من الجسر .

وبينما الصليبيون يتحسسون الضربة القـــوية واجههم الجيش العــربى باستخدام سلاح مذهل ، فت فى عضدهم وحطم أعصابهم ذلك هـــو « النار اليونانية » ٠

كان ذلك ذات ليلة عنـــدما اندفعت شـعلات رهيبة من اللهب عبر آلات قاذفة ٠ على معسكر الصليبيين وأبراجهم الخشبية التى أقاموها على ضفة بحر أشموم وظلت سيفا مصلتا كلما حاولوا اقامة أبراج جديدة تلقى الصليبيون وابلا من هذه الصواعق الجهنمية ٠ فاذا بها تلتهب ثم تصبح رمادا ٠

وأحس الفرنجة انه لا أمل فى البقاء ٠ ولا فى النصر ٠ وملأ اليأس قلوبهم وعجزوا عجزا شاملا عن عبور بحر اشموم الضئيل ٠

غير أن الفرنجة وجدوا مخاضة مأمونة ٠ قليلة الماء ٠ فاتجهوا الى عبورهـا الى المنصورة وبدأت المقدمة المكونة من ألف وأربعمائة فارس تقتحم الطريق الى المنصورة ولم تلبث أن وجدت نفسها فى شوارع المدينة فى عزلة تامة ٠

ولم يغب هذا عن الفارس « بيبرس » الذى انتهز الفرصة ودبر خطة بارعة للقضاء على مقدمة الصليبيين ٠ فحال دون تقدم القوات داخل المنصورة بينما طارد فرسانه المقدمة وانقضوا عليها كالسيل فأبادوا فريقا كبيرا منها بينمـا أخذ أهل المنصورة يقذفون الفرنجة بالرمال المحماة بالنار ٠٠ والأحجار من الأسطح والنوافذ ٠ وتم لأهل المنصورة ابادة القوة عن آخرها ٠

وكان على قيادة جيش العـــرب « فارس الدين اقطاى » الذى التحم مـع الصليبيين فى قتال مرير بينما كان الرماة يقذفون الصليبيين بالنار مما عجل باندفاع الفرسان العرب لاختراق صفوفهم ٠ وانزال هزيمة ســـاحقة بهم ٠ وتفشت فيهم الأمراض والأوبئة والحميات وعمت معسكراتهم أنات الاحتضار وشهقات الموت ٠

ودبرت المقاومة العربية خطة محكمة للقضاء على جيش القـــديس لويس بعزله وقطع خطوط المواصلات عنـــه حيث كانت ترد الامدادات عن طـــريق النيل وقد صنعوا عدة سفن ونقلوها مفككة على ظهور الجمال الى بحر المحلة شمال بحر اشموم وأنزلوها بعـــد تزويدها بالمقاتلين ٠ فلمـــا جاءت سفن الصليبيين من دمياط الى بحر المحلة تحمل الامدادات خرجت‌لها السفن العربية من مكامنها ٠ وأحاطت بها من كل جانب ٠ وظفروا منها بمائتين وخمســين مركبا ٠ وقتلوا وأسروا نحو ألف من بحارتها ٠ وجميـــع ما كان فى السفن من الأقوات والمؤن ٠ وواصل الأسطول العربى شن هجماته ضد سفن التموين الصليبية القـــادمة من دمياط ٠ وبذلك حلت مجـاعة مروعة فى معســـكر الصليبيين ٠ ولم يجدوا أمامهم الا أسماك النيل والحشائش وجذور النبات ٠

وأحس الفرنجة بالهزيمة الساحقة وقرروا العودة الى دمياط تاركين معسكرهم الملىء بالخيام والذخائر والمهمات لقمة سائغة • وعبر الصليبيون بحر اشموم على القنطرة التى عبروا عليها • فاقتحمت القوات العربية المصرية وراءهم على ذلك المعر وبدأوا فى مطاردتهم بلا هوادة • فلما وصل الفرنجة الى فارسكور خسروا ثلاثين ألف مقاتل وكان الجيش العربى قد قطع خط الرجعة عليهم فمنعهم من التقدم الى دمياط ثم أحاط بهم وقذفهم بوابل من القذائف المدمرة فأبيد أغلب الصليبيين وأسر الباقون •

واضطر « لويس » الى أن يلتجىء الى قرية منية عبد الله التى تقع شمال المنصورة وساد الذعر معسكر الصليبيين • ونادى مناديهم سلموا أيها الفرسان فان الملك يأمركم بذلك ولا تمتنعوا فيقتل الملك •

ولما أحاط المصريون بالقرية أدرك أن المقاومة قد أصبحت عبثا فسلم لويس ورفاقه أنفسهم بعد أن أمنهم المصريون • ونقل لويس فى الحال على احدى السفن الى المنصورة حيث سجن فى دار فخر الدين بن لقمان • وبلغ عدد الأسرى الصليبيين أكثر من اثنى عشر ألف أسير • ورفض العرب اطلاق سراح الملك الا بعد دفع فدية تبلغ أربعمائة ألف دينار • وبلغت خسارة الفرنجة فى هذه الحملة خمسين ألف ، غير ويلات الجزع والمرض •

وذكر « لويس » وهو خارج من مصر بعد هزيمته الساحقة خطاب الملك الصالح اليه وود لو قد أخذ بما جاء به •

«« ••• ورد كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ونحن أرباب السيوف ما بغى علينا باغ الا دمرناه • فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا الحصون والسواحل • وفتكنا منكم بالأواخر والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم • ولابد أن يزل بك القدم من يوم أوله لنا وآخره عليك • هنالك تخيب الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون • وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ••• »

ولكن « لويس » فيما يبدو بيت الكيد مرة أخرى فى حملة خاسرة على تونس وصفت بأنها الحملة التاسعة بعد عشرين عاما • حيث دفع حياته ثمنا لها •

معركة عين جالوت

٣ سبتمبر ١٢٦٠

حقا ، ان تاريخ العرب لحافل بالمواقف الباهرة ، والجولات البارعة ، فى مقاومة كل قوة باغية ، وتحطيم كل صولة ضارية تريد أن تحتل أرضه · ان العرب دائما لا يعرفون العدوان ولا الغدر · ولكنهم اذا ما أريد بهم الغـــدر والعدوان وجهوا ضرباتهم ببسالة وصرامة ، فتتمزق القـــوة الطاغية وترتد منهزمة على أدبارها · وفى أكثر من موقف تطاول العدو المغير ، وظن انه قـــد تمكن من أرض العرب ، ولكنه سرعان ما أفاق على صفعة عاتية جبـــارة ترده الى صوابه ، وتقنعه بأنه كان مخـــدوعا بقوته ، مخدوعا عن حقيقـــة جوهر « الشخصية العربية » فى غيرتها وحفاظها على شرفها وأرضها وحريتها ··

وما أحوجنا اليوم الى أن نعود بالذكرى الى موقف خالد ، وقع فى شـــهر سبتمبر عام ١٢٦٠ · كانت قمة من قمم المقاومة العربية التى اشتركت فيهـا مصر وسوريا · وكان لجيشهما الباسل أبعـــد الأثر فى كسب معركة ، هى أول هزيمة يلاقيها جيش مفزع ، ظل يزحف أربعين عاما من أعماق آسـيا ، زحفا مروعا مفزعا ، لا يقف أمامه شيء وقد ملأ قواده الغرور والـــكبرياء · وظنوا أن الأرض قد دانت لهم ، وانهم لن يقفوا دون أن يصلوا الى أورباوخيل اليهم أن موجة المد التى كانوا يمثلونها فى أرض العرب لن تقف ، وســـيظل التدمير والتحطيم مستمرا دون توقف ، حتى كانت موقعة « عين جالوت » فاذا بهم يفيقون على اعصار قليل فى عدده ، ولـــكنه قوى فى ايمانه ، ذلك هـــو اعصار القوة العربية الـــكامنة التى لا تنسى ثأرها ولا تنتظر قليـلا الا لترد الضربة بأقسى منها ·

هنالك أفاق التتار فى « عين جالوت » على حقيقة مذهلة ، على هزيمة مروعة على مقتل قائد كان يظن انه من آلهة الرومان أو الفراعين فاذا به جثـة هامدة هنالك تداعت الآمال وتحطمت الخطط ، وعاد التتار يجرون أذيال الخيبة ·

« ··· لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة ، استفظاعا لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى · فمن ذا الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليـــه ذكر ذلك ؟؟ فيا ليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل هـــذا وكنت نسيا منسيا ، الى أن حثنى

جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا . فلو قال قائل : ان أهل العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صـــادقا . فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربهـــا ولا ما يدانيها ..

ومن أعظم ما يذكرون ما فعله بختنصر ببنى اسرائيل من القتــل وتخريب بيت المقدس . وما بيت المقدس ، وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ، فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل .

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيـا وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .. » .

هذه عبارة شيخ المؤرخين « ابن الأثير » وهو يصف زحف التتار من أواسط آسيا على العالم الاسلامى وبلاد العرب . وقد استمر هذا الزحف أربعين عاما منذ سالت جيوش جنكيز خان من هضاب الصين تدمر كل شىء فى طريقها . قطعت على التركستان . وخربت ملك خوارزم ، وعبرت نهر السند الى حدود العراق ، ومات جنكيز خان ، وورثه هولاكو الذى أخضـــع القوقاز وايران ، ودخل العراق وحطم الخلافة والحضـــارة ، وفى خلال هذه الأربعـــين عاما والجيوش المندفعـــة تسير من ظفر الى ظفر ، وقد ملأ الرعب القلوب وغشت النفوس غاشية الخوف والذعر .

ووصل التتار الشام فلم تقف أمامهم حلب ، بل سارع أهلها الى تســـليم مفاتيحها الى هولاكو ، واستنجد أمراء الشام بمصر .. وأحست بأن الخطــر أوشك أن يكون على الأبواب . فهل نسلم ونستسلم لهذا الاعصار الأصـــفر المارق الذى لم ينهزم . والذى كان فى ركبه الموت والدمار أينما حل ؟؟

وتسامع الناس بالأيام الأربعين التى أذاقها التتار لبغداد .. لم تنقطـــع فيها المذابح والحرائق وقتل الألوف ونهب القصور والخزائن ودور العلم .

وها هو « كتبغا » قائد التتار يدخل عاصمة الاسلام الثانية « دمشق » وذهل الناس وتوجسوا خيفة .. ان الدور على مصر ..

كان النصر الذى أحرزه التتار منذ خرجوا من أعماق الصين ، ملأ قلوبهم غرورا فظنوا أن أية قوة لن تستطيع أن تقف فى طريقهم مهمـــا عظمت .. وبالرغم من أن جميع الملابسات كانت تدل على أن هذه القوة الغاشمة ستسحق مصر سحقا . فان مصر جيشا وشعبا قالت « لا » بملء الفم .. ووقف الشعب وراء الجيش فى معركة فاصلة يكتب صفحة جديدة فى تاريخ الشرق العربى ... اندفع جيش مصر فى سرعة فائقة . وحطم كل الحـواجز التى أمامه . وفاجأ

جيش التتار قبل أن يخطو خطوة واحدة عند الصالحية . كان ذلك يوم (٢٥ رمضان ٦٥٨) اذ طوت قوات الجيش صحراء سـيناء فأذهلت التتار الذين أخذوا على غرة ، وبضربة واحـدة كسب الجيش نصف المعركة وتقهقر جيش التتار لأول مرة وأخلى « غزة » .

وتقدم جيش مصر من غزة الى الشمال حتى وصل جبل « الكوامل » وفى « عين جالوت » فى ذلك اليوم الخالد التقى الجيشان : كان التتار فى ٤٠٠ ألف مقاتل وكان جيش مصر العربية أقل من ذلك بكثير . ولكن رجاله كانوا يحملون قلوبا عامرة بالوطنية فلم يرهبهم هذا العدد الضخم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » .

كان جيش مصر يؤمن بأنه يصنع التاريخ ، ويكتب مصير الشرق كله . بل ومصير أوربا واقترح بعض القادة على « كتبغا » القائد الأعلى لجيش التتار أن يطلب النجدة . ولكنه رفض كبرياء وغرورا ، فقـد كان يظن ان مصر لن تنتصر . والتقى الفريقـان : الفريق المؤمن بربه ووطنه ، والفـريق المدل بكبريائه وجبروته ودوى نفير الحرب وقرعت الطبول والتحم الجيشان .

وأعمل المصريون سيوفهم فى جند التتار وأحدثوا ثغرة دفعوهم اليهـا ثم أطبقوا عليهم من ثلاث جهات .

ووقف « كتبغا » قائد التتار يقول لجنوده : تذكروا اننـا نزحف وندمر ونحطم منذ خرجنا من الصين ، منذ اربعين عاما ، لقـد سقطت كل عواصـم آسيا تحت سنابك خيولنا والدولة العباسية ضاعت بددا .

وقتلنا الالوف ونهبنا القصور وخزائن المال . وأقمنا من الكتب العربيـة جسرا فوق دجلة . ولكن الموقعة الفاصلة هنا : يجب أن ندخل القاهرة وبذلك نكون قد حققنا النصر .

وسخر القدر من كتبغا هذه المرة ، وشاء له أن يقتل شر قتلة ، وأن يتحطم جيشه على الصخرة العاتية : القومية العربية .

وامتدت المعركة حتى المساء ، فالصباح فالظهر ..

وارتد التتار مدحورين الى التل الواقع قرب « بيسان » وتبعهم المصريون وأعملوا فيهم السيف حتى هزموهم شر هزيمة وطردوهم من فلسطين وسوريا .

وبذلك أنقذ جيش مصر الحضارة ، وحال بينها وبين الفناء ، ووقى حوض البحر الأبيض بل وحمى أوربا من شر الغـارات الهمجية التى ظل يواصلها التتار منذ خرجوا من قلب آسيا حتى تحطمت على حدود مصر ..

ومنذ يوم « عين جالوت » انكسر التتار وتوالت هزائمهم ، وكان ذلك ايذانا بغروب نجمهم .

« مرج دابق » اغسطس ١٥١٦

عندما تقف الأمة العربية اليوم وقفة « المقاومة » للاستعمار الذى لا يزال يسيطر على بعض أجزائها ٠ ووقفة « التجمع » لتلتقى أطرافها فى كيان موحد هو « القومية العربية » انما تستوحى ماضيها كله ٠ هذا الماضى الذى يتلخص فى مقاومة الضربات التى كانت توجه اليها دائما لتمزق وحدتها وتخضعها ٠ ولقد كان من هذه الضربات الاحتلال العثمانى الذى فرض عليها السيطرة بعد أن استنفدت كل وسائل المقاومة ٠ لقد قاوم الغورى فلما انهزم بفعل الخيانة واستشهد العرب على ثرى أرضهم بين سورية وفلسطين ومصر ، قام « طومان باى » يحمل راية المقاومة ، لينهزم أكثر من مرة ويعاود تجميع صفوفه ليعود الى المقاومة بكتائب من الأبطال الذين يتقدمون للاستشهاد ٠

ومعنى هذا أن العرب فى مصر وسورية عندما انهزموا كانوا قد بذلوا كل قوة فى أيديهم للمقاومة ٠ فلما لم يجدوا شيئا جعلوا من أجسامهم سدودا تقاوم الحديد والنار ، ومع ذلك ، ومع كل العسف الذى لقيه العرب من العثمانيين فانهم لم يلبثوا الا قليلا حتى ظهرت شخصيتهم واضحة قوية وضاءة ٠ وعجزت كل المحاولات التى أريد بها مسخهم ودمجهم فى الكيان العثمانى والآتون التركى ٠ كانت لغتهم دائما قوية تعجز أى لغة من ان تحل محلها وكانت شخصيتهم واضحة ، لا تتوقف عن المقاومة والبروز فى وضوح ٠

وقد كانت مصر كعهدها دائما ما أن سمعت نفير القتال حتى هبت لتقاتل ، ولم تكن قد نسيت بعد قتالها للصليبيين وأسر لويس التاسع فى المنصورة ، ولذلك هبت مع الأشرف الغورى واندفعت قواتها المسلحة ، وشبابها المجاهد خرج كله يحمل السلاح لم يكن الخوف يملأ القلوب أو يفزعها ولكن كانت العزيمة هى التى تدفعها لنضال جديد ٠

وكان العثمانيون قد نما سلطانهم وتقدموا من هضابهم الى حدود الدولة العربية المصرية التى كانت حدودها أقصى حدود الشام ٠ وكان الأتراك يطمعون فى خصب مصر وغناها ولقد كانوا يعدون العدة لذلك منذ وقت بعيد لولا ضربة تيمورلنك التى عطلتهم أكثر من نصف قرن ٠

وسارت مصر فى قواتها لتواجه الفاتح « فى مرج دابق » ولكنها كانت الهزيمة المريرة ٠ الهزيمة التى ليس مصدرها الفارق البعيد فى العدة أو العتاد بين القوات العربية والقوات العثمانية ٠ ولكن الخيانة هى التى هزمت العرب فقد تسللت المطامع الى الصفوف فكانت الواقعة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، كما يصفها ابن اياس وكانت مرج دابق قبرا

للسلطان الغورى ولجيشه بعد موقعة ٢٥ رجب ٩٢٢ الموافق أغسطس ١٥١٦ وأوقع الغزاة بجيش العرب السفك والنهب ولم يلبث السلطان طومان باى أن حمل لواء المقاومة ومضى يعد وسائلها ولكنه هزم ومضى الى الصعيد يجمع صفوفه من جديد ويقبل مرة أخرى ليدافع دفاعا باسلا فهزم مرة أخرى ومضى يجمع صفوفه مرة أخرى ٠

وكان العثمانيون قد انقضوا على القاهرة فصارعهم فيها من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت ٠ ولم يسلم ولكنه مضى صريع الخيانة للمرة الثانية فقد أسلمه بعض أنصاره الى العدو ٠

وهكذا سقط طومان باى بعد أن قاتل فى الريدانية وفى الطريق بينها وبين القاهرة وفى شوارع القاهرة ٠ واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على القاهرة ويعلقوا طومان باى على باب زويلة وتولية « خابر بك » الذى أطلق عليه اسم خاين بك لخيانته وانضمامه للسلطان التركى ٠

ولقى المصريون مأساة مروعة بعد هذه الهزيمة ٠ فقد انقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضوارى المفترسة ـ على حد تعبير الأستاذ محمد عبد الله عنان ـ فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ودامت المذبحة الهائلة أربعة أيام ويصفها ابن اياس بأنها المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان فقد كانت الجثث قد تقاطرت فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلة ومن الرميلة الى الصليبية الى قناطر السباع الى الناصرية الى مصر العتيقة ٠ ويقدر القتلى فى معركة ما بعد الحرب بربع مليون مواطن وأعدم السلطان سليم الأمراء والمماليك والقواد وعددهم أربعة وخمسون ٠ ويروى ابن اياس أن طومان باى هزم خمس مرات ، وقد هز الشعب قتله وصرخت الناس عليه صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العباقرة وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا ٠

ولم يلبث سليم الأول أن حطم تراث مصر ومدنيتها ونقل ثروتها الى الاستانة وخرب مساجدها وآثارها الخالدة ونزع نفائس العصور ونقل رجال المهن والصناع المهرة الى القسطنطينية فجرد مصر من كل ما تملك من وسائل المدنية والحضارة ٠

ولم يلبث الجور والبطش أن لحق بكل من فى مصر وسوريا من أبناء الشعب العربى الباسل ٠

ولكن هل استسلم الشعب العربى لهذا الظلم ٠ كلا ٠ انه لم يلبث بعد سنوات قليلة أن بدأ معاركه مرة أخرى فى سبيل المقاومة والتجمع وكانت القارعة بعيدة الأثر فى كيانه كله يرويها تاريخه الطويل فيما بعد ذلك من أحداث ٠

طرد الإنجليز من رشـــيد

٢٠ مارس ١٨٠٧

يجيء شهر مارس من كل عام فنذكر فيه يوما خالدا انهزم الاستعمار فيـه واندحر ٠٠ هو يوم رشيد ٠

عندما هزمت قوات المقاومة الشعبية حملة فريزر فى رشـــيد الباسلة عام ١٨٠٧ ارتد الانجليز عن مصر خمسة وسبعين عاما ــ حتى تحطمت هـــذه المقاومة فعادوا عام ١٨٨٢ وقد حطم هذه المقاومة محمد على وأسرته من بعــده عندما نفى عمر مكرم وقتل المماليك ، وأغرى العلماء بالمال وانفرد بالسلطة ٠ ولكن « عرابى » لم يهزم عن طريق القوة عام ١٨٨٢ وانمـــا هزم عن طريق الخديعة والرشوة والخونة أعوان الخديو ٠ وآية ذلك انه هزم الانجليز فى معركة كفر الدوار وأوقف تقدمهم ٠

كانت روح الشعب عام ١٨٠٧ فى أوج قوتها المعنوية بعد كفاح دام سنوات طويلة فى مقاومة الحملة الفرنسية أعوام (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) فلمـــا أخرج الفرنسيون بعد هزائم متوالية وكفاح ضخم امتد الى جميع أنحاء البـــلاد من الاسكندرية الى أعماق الصعيد انتهز البريطانيـــون الفرصة بعد ســـنوات وهاجموا رشيد فى حملة بقيادة فريزر ٠ وما أن علم أهل القاهرة بمقدم الحملة قبل وصولها حتى استعدوا لمقاومتها واستأنفوا كفاحهم بقيادة الســـيد عمر مكرم وفى ١٦ مارس وصلت الى ميناء الاسكندرية البوارج البريطانية مكونة من خمس وعشرين سفينة وســـدت مدخل الميناء ثم زحف الجنـــود على الاسكندرية ٠ واحتلوا قلعة أبى قير ٠ وسلم لهم أمين أغا محـــافظ المدينة ٠ ــ الذى كان من ضباط الأتراك ــ كل شيء دون حرب أو قتال ٠ وكانت الحملة البريطانية مكونة من ثيف وستمائة مقاتل بقيادة الجنرال فريزر وكان محمـد على حاكم مصر اذ ذاك متغيبا فى الصعيد يقاتل المماليك ويتعقبهم ٠

واتجه فريزر الى رشيد لاحتلالها كخطة عامة للاستيلاء على الثغور المصرية فتحرك أحد ضباطه فى الفين من الجنود يوم ٢٩ مارس قاصدا رشيد ٠ هنالك هب أهل رشيد للمقاومة فى عزيمة جبارة ٠

ودبرت خطة رائعة اذ تراجع الأهالى عن مداخل المدينة واعتصموا بالمنازل وتقدم الانجليز الذين لم يجدوا أية مقاومة فى أول الأمر ٠٠ فظنوا أن حاميتها

قد عمدت الى اخلائها وتسليمها كما فعل قائد حامية الاسكندرية التركي الخائن • وما أن دخلوا شوارع المدينة وتفرقوا فيها واستوعبتهم • حتى صدر الأمر باطلاق النار • فتلقاهم الرصاص من كل صوب • من النوافذ • وسطوح المنازل • والشرفات • فاذا بهم بين وابل منهمر من النار يجتاحهم من كل مكان فسقط عدد كبير منهم صرعى واستولى الذعر على العدد الباقى فلاذ بالفرار • وقتل قائد الفرقة « الجنرال جاكوب » وقد بلغ عدد القتلى فى هذه المعركة نحو ١٧٠ قتيلا و٢٠٠ جريحا كما أسر المصريون منهم ١٢٠ أسيرا وهذه عبارة الجبرتى « •• ودخلوا البلد • وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما فى يدهم من الأسلحة • وطلبوا الأمان • فلم يلتفتوا لذلك ـ أى الأهالى ـ وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كبيرة • وأسروا الباقين • وأرسلوا السعاة الى مصر بالسبسارة ـ فضربوا مدافع وعملوا شنكا » •• وقد احتمل الأهالى فعلا العبء كله فى الدفاع عن المدينة نظرا لما عرف به جنود القاهرة الذين كانوا من الارناؤوط • والدلاة • وأخلاط السلطنة العثمانية فى ذلك الوقت من النهب والسلب • وسجل المؤرخون أن الأهالى رفضوا أن يطلبوا النجدة من محمد على ووطنوا النفس على احتمال عبء المعركة جميعه • فكان هذا النصر شعبيا خالصا •

وقد أرسل حاكم رشيد الأسرى الانجليز الى القاهرة ومعهم رؤوس القتلى فاستقبلتهم الجماهير بحماس بالغ • وكانت القاهرة خلال احتلال الحملة للاسكندرية وزحفها على رشيد تتأهب للمقاومة • وتحشد الجنود للقتال • وتحفر الخنادق فى شمال القاهرة ، وتقيم الاستحكامات وكان على رأسهم السيد عمر مكرم الذى قسم العمل بين المتطوعين حيث يعملون فى الحفر نصف النهار ثم يعودون الى أعمالهم بعد الظهر • وقد كان حضوره يثير الشجاعة والحماسة فى النفوس ـ كما عقدت عدة اجتماعات شعبية فى القاهرة ـ فى بيت القاضى ـ وقد سجلها الجبرتى ، وقال : « ان على رأس من حضرها السيد عمر النقيب • والشيخ الشرقاوى • والشيخ الأمير وباقى المشايخ • فتكلموا فى شأن حادثة الانجليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فانهم أعداء الدين والملة • ثم تشاوروا فى تحصين المدينة وحفر الخنادق • وقد تم حفر خندق من باب الحديد الى النيل • وقد وزعوا حفره على مياسير الناس • وأهل الوكائل ، والخانات • والتجار • وأرباب الحرف ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة واشتروا المقاطف والغلقان والفؤوس والقزم • وآلات الحفر • وشرعوا فى بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية •• » •

وقد قام السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد بدور ضخم في معـــركة رشيد ، كما أرسل الى عمر مكرم يستنجد بأهل القاهرة فاندفع عدد كبير من المتطوعين من حاملى السلاح لنجدة رشيد فى صد الجيش الانجليزى ـ كمـــا تطوع أهالى البحيرة والبلاد المجاورة ٠

وهكذا هزمت « رشـــيد » الجيش البريطانى عام ١٨٠٧ ، كمـا هزمته « كفر الدوار » عام ١٨٨٢ ، وكما هزمته « بور سعيد » فى معركة ٥ نوفمبر ١٩٥٦ ٠٠

عندما تآمرت بريطانيا على اسطول مصر

يجب أن نجعل من الذكرى عبرة ٠ ومن الأحداث قوة جديدة لنا للعمل ٠ وكذلك نحن اليوم عندما ننظر الى موقعة « نفارين » عندما حطمت بريطانيا مع دول الغرب أسطولنا الفتى عام ١٨٢٧ وقد كان مكونا من ٦٢ سفينة حربية٠ وكان يشق طريقــه فى قلب أوزبا لأول مرة وقد ســجل فى ذلك الوقت انتصارات كشفت عن جوهر الجندى المصرى الباسل ٠ وقد أزعجت بريطانيا هذه القوة الفتية فعملت على القضاء عليها حتى يظل لها القدرة على التحكم فى هذه المنطقة والسيطرة عليها ٠

وكانت العمارة المصرية فى البحر الأبيض ـ كما كانوا يطلقون على الأسطول فى ذلك الوقت ـ عاملا مقلقا لبريطانيــا التى كانت تدعى فى ذلك الوقت (سيدة البحار) والتى كانت تعد مع الدول الأوربية مؤامرة ضخمة للاستيلاء على ممتلكات الدولة العثمانية ٠ لذلك كان يزعجها أن يصبح لمصر مثل هــذه القوة وأن يجوب أسطولها موانى البحر الأبيض قبل ذلك بين قبرص وكريت ورودس وسافز ومدللى ٠ وأن تنطلق وحداته شرقا الى ساحل الأناضــول وشمالا الى الدردنيل ٠

ولم تكن هذه أول مرة للجندى المصرى العربى يخوض غمار البحر الأبيض ـ فقد حدث هذا من قبل فى عهد السلطان الأشرف وقبل ذلك فى عهد فتوحات العرب الأولى ٠

وقد حقق الجيش المصرى أول نصر له فى أرض أوربا ولــكن بريطانيــة أزعجها أن يصل المصريون الى الأرض الأوربية ويستولوا عليها ٠ عندئذ رتبت مع الحلفاء خطة لسحق الجيش المصرى فى ميناء نفارين ٠

يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى : « لكن قواد الحلفاء أنفسهم لم يقنعوا بخطة الدفاع بل بيتوا الشر للأسطول المصرى والتركى واتفقوا فيمــا بينهم على تدميره ٠ ومن هنا وقعت كارثة نفارين ٠ وهذه المؤامرةقد دبرتها السياسة الانجليزية وأوعزت بها الى الحلفاء وغايتها منها أن تقضى على العمــارة المصرية الفتية ٠ فلا تعود مصر تنافسها السيادة فى البحر الأبيض المتوسط ٠ وهكذا كانت انجلترا ولم تزل تتربص بمصر وتدبر لها المكايد من كل ناحية وتحول دون أخذها بأسباب القوة والمنعة فى البر والبحر » ٠

وقد كانت الخطة هي أن يدخل الحلفاء بأساطيلهم ميناء نفارين وكانت السفن المصرية مصطفة داخل الميناء فى ثلاثة صفوف شبه متوازية كل صف فى شكل نصف دائرة ، يمتد طرفاها من نفارين الجديدة الواقعة على يمين البوغاز الى جزيرة (اسفاختريا) التى تحجب عن الميناء أمواج البحر ٠ ووقفت البوارج والفرقطات الكبيرة فى الصف الأول وفى الصف الثانى سفن الكورفيت ويليها سفن الابريق وغيرها ٠

وكان يحمى مدخل الميناء استحكامات قلعة نفارين وبطاريات من المدافع فى طرف جزيرة اسفاختريا وغدرت فرنسا بمصر أيضا فى ذلك الوقت فانه قد صدرت الأوامر الى الضباط الفرنسيين الذين كانوا يعملون بهذه السفن بالانسحاب فانسحبوا فى أشد أوقات الحرج ٠

وكانت الخطة أن تقتحم السفن الانجليزية ، وغيرها البوغاز وتدمر العمارة المصرية وقد بدأ ذلك فى صبيحة يوم ٢٠ أكتوبر ٠

ولما أرسل قائد الأسطول المصرى الى القائد البريطانى أن يمنع عمارة الحلفاء من الرسو فى نفارين ، قال الأميرال البريطانى فى لهجة جافة : انه لم يجىء ليتلقى أمرا ، بل جاء ليملى أوامره ٠ وتقدمت السفن البريطانية وغيرها فى مواجهة الأسطول المصرى فى شكل نصف دائرة ٠

وكانت سفن بريطانيا والحلفاء ٢٧ سفينة ٠ ومن بينهم عشر بوارج كبرى ٠ وقد استطاع الأسطول الغربى أن يحاصر سفن الأسطول المصرى فى مكان ضيق لا يمكنها من الحركة ٠

وبدأت الأساطيل الأوربية القتال وردت عليها البحرية المصرية بالمثل ولكن موقع الأسطول المصرى عرضه للفتك به والقضاء عليه وقد انتهت الموقعة بهلاك معظم قطع الأسطول المصرى غرقا ونسفا وحرقا ٠



ولا شك أن موقعة نفارين احدى معارك الغدر البريطانى المتعددة التى لا تقوم على شرف الحرب الحقيقية ٠ فقد بدأت المعركة دون انذار أو استعداد للقتال ٠ وذلك مناف تماما لأبسط قواعد الحروب ٠

ولكن ذلك كله لم يكن الا جزءا يسيرا من تاريخ ضخم للجيش المصرى الذى استطاع بعد ثورة ١٩٥٢ أن يستعيد قوته وأن يصبح قوة فعالة لها قيمتها ٠ وقد كانت نفارين أشبه ما تكون بالعدوان الثلاثى على مصر عام

١٩٥٦ فى نفس الهدف الذى ترمى اليه بريطانيا • ولكن التجارب الحربية كانت دائما وسيلة الى كسب النصر • فقد علمتنا نفارين وغيرها خبرة وتجربة ضخمة تمكنا دائما من أن نأخذ بيدنا عنصر المبادأة ولا نخدع أمام تصرف غادر من مثل هذه التصرفات التى تجيدها بريطانيا • وترسم موقعة نفارين بعد هذا كله صورة الغدر البريطانى الذى كان يحرص دائما على ألا تصل مصر الى درجة من القوة تمكنها من أن تكون دولة كبرى فى الشرق الأوسط •

وقد اكتسب الجيش المصرى من موقعة نفارين شهادة المؤرخين المنصفين بأنه خاض أول حرب أوربية وبرهن فيها على كفايته وقدرته وأن الجندى المصرى قادر على أن يقف على قدم المساواة مع أرقى الجيوش الأوربية • كما اكتسب مرانا على فنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة •

وقد اندفع الجيش المصرى بعد ذلك ولم يتوقف • فقد حارب بعد ذلك فى الدانوب وفى المكسيك وفى الحبشة وفى صحراء السودان وصحراء الحجاز كما قاتل فى القرم وفى نزيب وتحت سور عكا وأحرز فى كل مكان انتصارات مؤزرة واستطاع أن يحتمل قسوة الجو فى كل مكان من هذه الأماكن • واليوم والجيش هو الأمل الأكبر للعرب جميعا فى تحقيق أملهم الكبير نعود الى الماضى لنأخذ منه العبرة ونجعل من الأحداث قوة •

ثورتان على الفرنسيين والانجليز

ثلاث هزائم لبريطانيا وهزيمتين لفرنسا

تجمع ذكرى شهر مارس بين ثورتين كبيرتين هما ثورة ١٨٠٠ على الفرنسيين وثورة ١٩١٩ على الانجليز ٠ وهمـــا العدوان التقليـــديان للعرب منذ فجر الاستعمار ٠ يتصارعان فى سبيل السيطرة على المنطقة ويلقيان من العرب على طول هذه الفترة جهاداً وجلاداً ٠ فقد كانت الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٧ نقطة البدء لهذه المعركة الضخمة بين الاســـتعمار الغربى والوطن العـــربى تسابقت خلالها فرنسا وبريطانيا تسابقا ضخما على احتلال أطراف هذا الوطن ففى الوقت الذى أبحر فيه نابليون الى الشرق ٠ تبعه نلسون قائد الأسطول البريطانى وسبقه الى ميناء الاسكندرية ولم يكن نابليون قد وصل ٠ وحاول نلسون أن يقف فى الثغر ولكن محمد كريم حاكم الاسكندرية رفض أن يمكنه حتى من الحصول على الماء ٠ فلمـــا قال نلسون اننا نريد حمـــايتكم من الفرنسيين ٠ ضحك كريم فى سخرية وقال : اذهب أنت ونحن أقدر على قتال الفرنسيين اذا جاءوا ٠

وقاومت مصر الحملة الفرنسية ثلاث سنوات كاملة ٠ لم تتوقف عن المقاومة والقتال ومواجهة الأسلحة الحديثة الفتـــاكة بالايمان والأجساد المتراصة والعزيمة التى لا تفتر ٠ وفى خــــلال ذلك وصل نلسون الى أبى قير وحطم أسطول نابليون ونزلت حملة انجليزية تركية الى الشاطىء المصرى ولـــكن مقاومة مصر للحملة الفرنسية كانت عاملا ضخما فى انهاء أحـلام نابليون فى اقامة امبراطورية فى هذه المنطقة ٠



وقد تحطمت هذه الأحلام بعد هزيمته فى عكا وعودته الى فرنســـا هنالك تجددت الثورة فى مارس ١٨٠٠ فكانت نهاية هذه الحملة ٠

ولكن بريطانيا وهى تصارع فرنسا فى الاستيلاء على أرض العرب لم تلبث أن أرسلت حملة بقيادة فريزر عام ١٨٠٨ لقيت أقسى مصـــير فقد نزلت فى

الاسكندرية بخيانة حاكم الاسكندرية التركى • وزحفت الى رشيد حيث واجهتها المقاومة الشعبية التى حطمت قواتها وسحقت قادتها •

ولكن هل توقفت فرنسا وبريطانيا بعد هزيمتهما ؟؟

لقد ظلت فرنسا تمالىء محمد على وتخدعه حتى جاءت ساعة الجد فى أزمته بعد هزيمة نفارين فاذا بها تسحب رجالها من أسطول محمد على وتغدر به وتخون العهود • وتحقق عمليا مذهبها العدوانى الغادر ولم تزل فرنسا وبريطانيا تسيطران بعد وتتصارعان حتى حصل دلسبس على امتياز قناة السويس • هنالك دب الخلاف بينهما ولكن بريطانيا التى عارضت مشروع حفر قناة السويس سرقت أسهم مصر واشترتها خلسة بغير الأسلوب الشرعى القانونى عن طريق بيت من بيوت المال اليهودى • هنالك بدأ تدخل فرنسا وانجلترا واضحا فى شئون مصر وسيطرتهما على جهاز الحكم وقد زاد هذا الضغط اسراف اسماعيل وتضخم ديونه مما فرض صندوق الدين واللجنة الثنائية بل تعدى ذلك الى حد اشتراكهما فى الوزارة بعضوين بريطانى وفرنسى •

وعندما ضغطت القوى الشعبية بقيادة عرابى على اعادة مجلس النواب أرسلتا الى الاسكندرية أسطولا بريطانيا وأسطولا فرنسيا • ولكن بريطانيا استطاعت أن تكسب الجولة بغدر أشد ظلمة من غدر فرنسا فتحقق لها حلم السنوات الطويلة باحتلال مصر عام ١٨٨٢ وكانت فرنسا قد احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ •

ولكن الصراع كان لا يزال قائما حتى خدعت به الحركة الوطنية التى قامت بعد الاحتلال وحاولت أن تفيد منه فاتجه مصطفى كامل الى فرنسا واتخذ من صحفها ومنابرها ميدانا لمقاومة بريطانيا • غير أن الموقف ما لبث أن تكشف عام ١٩٠٤ عندما عقدت بريطانيا وفرنسا ما أطلق عليه الاتفاق الودى : فأطلقت فرنسا يد بريطانيا فى مصر مقابل السماح لها باطلاق يدها فى الجزائر وكذلك كشف الاستعمار عن حقيقة غدره وعدوانه •



وقد ظلت مصر تقاوم الاستعمار البريطانى وكانت آية ذلك ثورة ١٩١٩ التى لم يكن لها قائد ظاهر فقد اندلعت بعد نفى سعد زغلول ولكنها كانت خلاصة تعبئة وطنية وروحية ضخمة بدأها مصطفى كامل وأتمها محمد فريد الذى كان منفيا اذ ذاك فى أوربا • وقد زادها طغيان بريطانيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى قوة ــ فما لبثت أن وجدت متنفسا لها فى نفى سعد

زغلول فانطلقت على نحو هز العالم كله وأزعج بريطانيا التى لم تكن تتوقع ثورة المصريين بعد أن أعدت لاستعمارها الوسائل الكفيلة بقبول المصريين له ولكنها كانت واهمة فى فهم روح المقاومة فى مصر والمنطقة العربية اذ لم تلبث بريطانيا أن واجهت ثورات متعددة فى العراق وفلسطين والسودان والأردن والجنوب العربى ٠

وكذلك واجهت فرنسا ولا تزال تواجه ثورات متعددة فى الأجزاء العربية فثارت سورية ولبنان وتونس والمغرب والجزائر وقد أرغمت هذه الثورات بريطانيا وفرنسا على الجلاء عن مصر وسورية ولبنان وعلى تعديل موقفهما فى الأجزاء الأخرى وما تزال ثلاث قضايا ضخمة من قضايا الحرية فى العالم العربى تتخذ طريقها بالمقاومة الى الحرية : الجنوب العربى والجزائر وفلسطين المحتلة ٠

وقد حاولت فرنسا وبريطانيا أن تتساندا ضد رغبة الأمة العربية فى الحرية ٠ وفى الجزائر ما تزال فرنسا تتلقى الهزائم يوما بعد يوم فى حرب طويلة الأمد ممتدة منذ عام ١٩٥٤ وهما فى سبيل مقاومة القومية العربية قد ساندا اسرائيل واشتركا معها بل وجهاها الى القيام بالعدوان عام ١٩٥٦ وقد اشتركت فى هذا العدوان الدول الثلاث ٠ وهكذا عادت بريطانيا وفرنسا الى محاولة احتلال قناة السويس عام ١٩٥٦ بعد تأميمها ٠ وقد جاءت فرنسا مدفوعة برغبتها فى الانتقام من مصر لمساعدتها للجزائر ٠ ولكن هذا العدوان المشترك بين فرنسا وبريطانيا على بور سعيد لم يلبث أن انهارت قوائمه وارتدتا معا مهزومتين ٠ وكانت معركة السويس شؤما عليهما فقد انحدرا بعدها الى دول من الدرجة الثالثة ٠ ونزل مركزهما الاستعمارى فى العالم العربى كله ٠

الحملة الفرنسية ومقتل كليبر

١٤ يونيه ١٨٠٠

فى مرحلة من مراحل مقاومة الاستعمار والكفاح فى سبيل الحرية كان لابد من عمل حاسم لسحق الرجل الذى كان يرسم خطط قتل المصريين المقاومين للاحتلال الفرنسى بالجملة والذى كان يضع المدافع فوق جبل المقطم ثم يقذف المجاهدين فى حى الأزهر بالقنابل ٠

وكانت النفوس قد ملأها الحزن والأسى والرغبة فى الانتقام عندما جرؤ الفرنسيون لأول مرة فاقتحموا الأزهر بخيولهم وفى نفس الوقت كانوا يرسمون خطة الاستيلاء على عكا كجزء من برنامج كبير لاقامة امبراطورية فرنسية فى الشرق تواجه امبراطورية بريطانيا فى الهند ٠

كل هذه العوامل تفاعلت فى نفس شاب حلبى يدرس فى الأزهر يحمل أمانة للأمة العربية التى يرغب نابليون فى احتلالها ٠ وللأزهر الذى يدرس فيه ويقدسه ٠ فاتجه تفكيره الى عمل حاسم يقاوم به الحملة الفرنسيةويشارك فى جهاد المصريين الذين عاشوا فى ثورة مستمرة خلال السنوات الثلاث التى قضتها الحملة محتلة لبلادنا ٠

فلما تمكنت فكرة اغتيال كليبر فى نفسه أخذ يعد نفسه لها ٠ فلما راجع أصحابه محمد الغزى وأحمد الوالى وعبد القادر الغزى أنكروا عليه اتجاهه غير أنه كان قد آمن بأنه سيضع روحه موضع الفداء لأمته فمضى فى طريقه ٠

وقد أشار المؤرخون الى أن العمل الذى قام به (سليمان الحلبى) بقتل كليبر أحد رجال الحملة الفرنسية كان بعيد الأثر فى انتهاء هذه الحملة وخاتمة الفشل الذى تحقق لرجالها فى مصر ٠

كان ذلك فى صباح ١٤ يونية ١٨٠٠ عندما قصد « كليبر » قائد الحملة الفرنسية فى مصر بعد سفر نابليون عائدا الى بلاده ـ الى جزيرة الروضة ليستعرض كتيبة الأروام ، ثم عاد ليتفقد أعمال الترميم فى سراى الألفى بك بالأزبكية ٠ وبينما هو يتفقدها مع المهندس بروتان تحت تكعيبة من العنب ممتدة فى السراى تقدم اليهما رجل كان يكمن وراء بئر ـ رواية الجبرتى ـ عليها ساقية فاقترب من كليبر كأنه يريد أن يستجديه أو يتوسل اليه حتى

اذا تطلع اليه كليبر دهشا بادره بطعنة قاتلة من خنجره ، سددها الى صدره، سقط على أثرها على الأرض مضرجا فى دمائه ، فلما أسرع مسيو بروتان فى تعقب الجانى وأدركه تماسكا فطعنه سليمان ست طعنات سقط على أثرهـــا بجوار كليبر – وعاد مرة أخرى الى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليجهز عليه ٠

ولم يجد الحارس الذى أقبل أحدا ٠ وانتشر الخبر فى أنحاء القـــاهرة وخالطت النفوس فرحـــة التشفى من المتسلط الظالم ممزوجة بالخـوف من الانتقام ٠ وجرى البحث عن القاتل الذى كان مختفيا فى نفس الحديقـــة ، وحقق مع العلماء الذين كانوا يتصدرون قيادة المقاومة الشعبية للفرنسيين ٠ غير أن ذلك لم يسفر عن ما يبعث فى وجود صلة بينهم وبين سليمان الحلبى ٠ ولما قبض على سليمان اعترف بالحادث فى ثبات وثقـــة وقال انه كان يتعقب خطوات كليبر عدة أيام ٠

كان سليمان اذ ذاك فى سن الرابعة والعشرين يطلب العلم فى الأزهر ٠ غادر سوريا الى بيت المقدس ثم جاء الى مصر ٠ ويروى أن بعض رجال الجيش العثمانى قد تفاهموا معه على قتل القائد الفرنسى ٠ ولكن الثابت أن سليمان لم يكن محرضا من أحد وانما كان يفهم حق الفهم خطر الاحتلال الفرنسى لمصر الذى هو خطوة أولى لتكوين امبراطورية فرنسية لذلك هداه تفكيره الى أن قتل كليبر وهو قائد الجيش سيعجل بانهيار هذه الحملة ويدفعها الى العودة ويحطم أحلامها ٠ وقد جاء هذا التفكير بعد هزيمة الجيش الفرنسى فى عكا ٠

وفى خلال المحاكمة التى تمت عن طريق محكمة عسكرية حاول الفرنسيون اتهام مشـــايخ الأزهر بالتحريض أو ربط الحـــادث بأى طرف من الأطراف الأخرى ٠ وظل سليمان خلال المحاكمة ثابت الجأش قوى العزيمة ، لم تزلزله المظاهر الرهيبة التى واجهوه بها مصرا على الاعتراف مؤمنا بأنه أدى للقومية العربية واجبا وقال انه ليس له شركاء فى جريمته وانه فعل ما يأمر به القرآن من جهاد المحتلين ومقاومتهم بكل وسائل المقاومة وانه أى كليبر قتل الألوف من أبناء الأمة العربية فلابد أن يلقى نفس المصير ٠

وقد تنكر بعض مدرسيه وتنصلوا من انهم كانوا يعرفونه أو يدرســون له وطالب المدعى العمومى باحراق يد سليمان اليمنى التى باشر بهـــا القتل ثم اعدامه على الخازوق ٠ وترك جثته تأكلها جوارح الطير ٠ وقد صـــدر الحكم على هذه الصورة مع اعدام زملائه الأزهريين الأربعة الذين كان قد تحدث معهم فى أمر قتل كليبر ٠

وقد شرح كبير الجراحين (لارى) جثة سليمان الحلبى بعد اعدامه واستبقى هيكل رأسه الذى نقل الى غرفة التشريح بجامعة باريس . كما حفظ الخنجر الذى قتل به كليبر فى مدينة كاركاسون بفرنسا .

ولم يلبث الفرنسيون طويلا بعد مقتل كليبر فقد كانوا يحسون دائما بأن المصريين والأزهر والشعب جميعه يقاوم ولا يتردد فى قتلهم فى كل مكان . بل ان عددا كبيرا من ضباطهم قتلوا بطريقة أو بأخرى مما أقنعهم بأن حيـــاتهم باتت فى خطـــر وأن حملتهم قد أوشكت على الفشل الذى لا ســـــبيل الى البقاء معه .

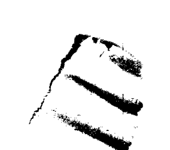
مقاومة حسن طوبار

سبتمبر سنة ١٧٩٨

انه رمز على « الشخصية العربية » التى تبرز فى مواقف الشدة والجهـاد والمقاومة فجاة فتبهر الأنظار وتأخذ بالألباب • دون أن يكون هنـاك تقدير موضوع أو اعداد مرتب • وانما هى تلك القوة الكامنة البـاهرة التى تستكن فى أعماق هذه الأمة وتظهر فجـأة فى أوقات المحن فتدهش المراقبين • وقد كانت الحملة الفرنسية على مصر كخطوة لاحتلال أرض العرب • تجهل حقيقة جوهر هذه الأمة التى لا تصبر على الضميم ولا تقبل الظلم ، حتى أفاقت فرنسا كما أفاقت انجلترا على ضربات متوالية جبارة أقنعت كل مغير بأنه انما كان مخدوعا بقوته عن ايمان هذه الأمة بكرامتها وشرفها واستعدادها للدفاع عنها بكل ما تملك •

حسن طوبار :

هذا الصياد الذى يعمل فى بحيرة المنزلة يقود مقاومة عنيفة ضدالفرنسيين ويقف فى وجوههم ، ويصمد ويجمع ستمائة مركب من مراكب الصيد ليقاتلهم بها ويعطل حركاتهم الى سورية ، كما كان له أبعد الأثر فى تمكين حاكم عكا من تحصينها تحصينا جبارا هد من قوة نابليون ورده خائبا •



ويروى المؤرخ « ربيو » الذى كان موافقـا للحملة من مواقف حسن طوبار فيقول :

« لما وصلنا بحرا تجاه الجمالية وهى قرية كبيرة قوية على الشاطىء الغربى من بحر اشمون فوجئت السفن التى كانت تقل الجنود بعاصفة من الأحجـار والرصاص تنهال من أسوار البلدة وبيوتها • وفى الوقت نفسه رأينـا جموعا كبيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنـادق والسيوف والعصى تهرع من الجهات المجاورة مسرعة الى مهاجمتنا بعضهم راكبين الخيل وأكثرهم مشاة » •

وقد سجل نابليون فى مذكراته مواقف حسن طوبار وقال : « كان من الصعب أن نصدق أن يقوم رجل مصرى ساذج بمثل هذه الخطط الحربية الباهرة لقد رفض رفع الراية البيضاء أمام أسطولنا . وقال انه مسئول عن كل أراضى الدلتا » .

وكان حسن طوبار يعمل بقوة ويجوب البلاد الواقعة على بحر اشموم يحرض الأهالى على الثورة ويرسل رسله الى البلاد الأخرى لتنظيم المقاومة وسافر الى غزة ليجمع أكبر عدد من السفن وأرسل اليه نابليون رسله يغرونه بالهدايا فرفض مقابلتهم .

ولم يلبث أن دخل فى معركة فاصلة مع أسطول نابليون ، وقف أسطول نابليون فى مياه دمياط وقد أبلى حسن طوبار واخوانه بلاء حسنا ولولا مدفعية السواحل لتمكنوا من اغراق أسطول فرنسا .

وليس اسم حسن طوبار وحده هو الذى يبرز فى مواقف مقاومة الحملة الفرنسية ولكن هناك أسماء أخرى سجلها التاريخ واعترف لها الفرنسيون بالبطولة .

هناك مصطفى بك أمير الحج الذى طاف بالشرقية والدقهلية يحرض الناس على الفرنسيين وانضم اليه ألوف مؤلفة . وكان من أثر ذلك أن هاجم الأهالى فى ميت غمر المراكب الفرنسية التى تحمل الذخائر والمدافع والأقوات التى حملت الى القوات الفرنسية فى سوريا . وقد استولى عليها الأهالى وقتلوا من فيها من الفرنسيين وفى ثغر الاسكندرية ظل محمد كريم يقاوم مقاومة جبارة حتى سيق الى المشنقة . وهو لا يبالى بالقيود . وقد تجمع النـاس حوله فى طريقه الى ساحة الاستشهاد وهو ينادى : قاوموا ، اليوم بى وغدا بكم . وكان « محمد كريم » حاكم الاسكندرية هو الذى واجه البوارج الفرنسية فى ١٩ مايو ١٨٩٧ وفى خلال ستة عشر شهرا كاملة أجج نار الحقد والخصومة والكراهية لهم فى كل قلب ، فى محيط يمتد من الاسكندرية الى القاهرة .

لقد مضى يسبق الحملة وهى تشق طريقها الى القاهرة يحرض البلاد على عدم التعاون مع الفرنسيين . ومنع المـاء والدواب عنهم ومواجهتهم بالحرب والمقاومة فى كل مكان . ومضى يكتل الشباب سرا ويدفعه الى حمل السلاح والتصدى للفرنسيين فى كمين وكمين للادالة منهم . ولم يدخر وسعا ،ووضع ماله كله فى سبيل الغاية لا يعرف الأمن والراحة .

وفى القاهرة كان « عمر مكرم » يعمل بسرعة وقوة • فانه ما أن علم بأن نابليون بدأ زحفه تجاه الأهرام حتى صعد الى القلعة فأنزل منهـــا « بيرقا » كبيرا سمته العامة « البيرق النبوى » فنشره بين يديه من القلعـــة الى بولاق وأمامه ألوف من العـــامة • ومضى يستنفر الشعب فى قوة لمقـاومة نابليون فخرج الناس تاركين أعمالهم وبيوتهم • وقد عمدوا الى اقامة المتاريس ونصب المدافع وحفر الخنادق وتحصين المدينة •

وكان خلال المعارك ينتقل بين أبواب الحارات ومراكز التكتلات يشـــجع المحاصرين ويرفع من روحهم المعنوية •

ولم يذعن المصريون يوما خلال السنوات الثلاث التى احتل الفرنسيون فيها مصر ، ولم يقبلوا هذا السلطان الغريب عنهم بالرغم مما فعـــل نابليون فى سبيل التقرب الى الشعب وارضائه وتملقه •

وقد اندلعت الثورة مرات ثلاث فى القاهرة : فى ٢٠ مارس ١٧٩٨ وفى أكتوبر ١٧٩٨ وفى سبتمبر ١٨٠٠ وكانت هذه المرة عنيفة جبارة • صـــمد الشعب فيها صمودا عجيبا وقدم ضحاياه بالألوف • الألوف الذين فتكت بهم القنابل الفرنسية • ومع ذلك فان الشعب لم يرتد على أعقابه ومضى يقاوم فى ثبات •

وكانت صرخة عمر مكرم تدوى فى أنحاء البلاد :

« ان السلاسل شر من الحراب •• »

وفى هذه الثورة زحفت الجموع صوب مخازن الفرنسيين على ساحل النيل فى امبابة فاشتبكوا فى معركة خاطفة انتهت بانتصار الثوار واستيلائهم عـلى المخازن • فأشعلوا فيهـــا النيران • ومضى الأهـــالى الى غزو الفرنسيين فى قلاعهم •

وتوالت القنابل على أحياء القاهرة وجرت الدماء وتهدمت المنازل ومع ذلك فان الشعب لم يكف عن المقاومة لقد صنع سكان القاهرة القنابل من حـــديد المساجد وفعلوا ما لا يمكن تصديقه • وقاموا بما لم يستطع أحد أن يقوم به •

ومرت أيام دون أن يتراجع الشعب ورأى كليبر تصميم الشعب مما دعاه الى أن يطلب من زعماء القاهرة انهاء الثورة سلميا • وجمع كليبر العلماء الذين أعلنوا انهم لن يستطيعوا ايقاف تيار المقاومة الآخذ فى الازدياد •

ولم تكن الثورة لتخمد فى مكان حتى تندلع فى مكان آخر ••

ولم يلبث كليبر أن قتل بيد الشهيد سليمان الحلبى الذى كان طالبا فى الأزهر •• هنالك تولى القيادة الجنرال مينو • وقاوم الشعب مرة أخرى • واندلعت الثورة من جديد ••

وفى بولاق قامت الثورة بقيادة الحاج مصطفى البشتيلى الذى قاد العامة فخرجوا يحملون السيوف والبنادق والرماح والعصى واتجهوا صوب قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها • فرد الفرنسيون هجومهم بنيران المدافع • وقتل ثلاثمائة من الثوار ، وعمت الثورة أنحاء المدينة •

وتأكد للفرنسيين أن هذا الشعب لا يغلب وانه لا سبيل لهم الى البقاء فعولوا على العودة ••

وانتصر الشعب •••

عندما هزمنا نابليون أمام حصن عكا

٧ مارس سنة ١٧٩٩

ان الأمة العربية التى تتجمع اليوم فى وجه الاستعمار تستطيع أن تجد فى انتصاراتها عن طريق الوحدة والتجمع فى الماضى صـــورة ما تزال حية • فى هزيمة نابليون مرتين • مرة فى القاهرة ومرة أخرى أمام حصن عكا • فيكون ذلك نهاية حلم طويل عاش فى خيال هذا المحارب الغربى الذى كان أول رائد استعمارى الى أرض العرب • عندما كان يطمع فى اقامة امبراطورية ضـخمة فى هذه المنطقة التى هزمت كل من أراد التسلط عليهـــا • فى الوقت الذى رحبت بكل من جاءها صديقا ومسالما •

ونابليون الذى دوخ أوربا وأزعج ملوكها واستطال على أقطارها عاش حياته يذكر هزيمته فى أرض العرب • كانت هناك روح الوحدة متمثلة فى عدد من الأحداث •

جاء ســـليمان الحلبى من ســـوريا ليقضى على كليبر لأنه كان يؤمن بأن انتصار الفرنسيين فى القاهرة سيفتح أمامهم البـــاب نحو الأرض العربيـــة كلهـــا • ووقف حسن طوبار الصياد المصرى فى بحـــيرة المنزلة أمام قوات نابليون بعد أن جمع اليه أكثر من ٥٠٠ مركب وظل يهاجم كل مركب فرنسية تتقدم فى طريقها الى الشام فأغرق عددا كبيرا منها وأصاب بعضـــها الآخر بالعطب وأعطى الفرصة لحاكم عكا أن يحصن ثغرا من ثغور العرب وقد ظل طوبار يقاوم فى بحيرة المنزلة حملة نابليون الى سوريا ويعطلهـــا عاما كاملا حتى غدت عكا حصنا منيعـــا وقف أمامه نابليون طويلا دون أن يســـتطيع اقتحامه ومن ثم عاد يجر أذيال الخيبة فكان ذلك علامة النهاية فى حملته على أرض العرب •



عندما خرج نابليون فى حملته الى الشرق كان يريد أن يكون امبراطورية فرنسية تواجه الامبراطورية البريطانية فى الهند وتصارعها • ولكنه ما كاد يصل الى مصر حتى واجه مقاومة شعبية ضخمة لم يكن يتصورها • وقد استعان بكل شيء فى سبيل تأكيد سلطانه ولكن دون جدوى • لقد قاومه الرجال والنساء وأقيمت المتاريس وصنع الرصاص من حديد النوافذ • وامتدت الثورة من القاهرة الى الأقاليم ولم تفلح أساليب نابليون فى قمع الثورة • وأراد نابليون أن يواصل عمله فى سبيل هدفه البعيد • كان يهدف من احتلال الشام الى اتخاذها موقعا حصينا للدفاع عن موقعه فى مصر • بل ان نابليون كان يطمع اذا ما نجحت الحملة على سورية أن يواصل زحفه على الهند أو يزحف الى الاستانة ويقوض دعائم السلطة العثمانية وبذلك يحقق له اقامة امبراطورية يكون هو عاهلها •

ولم يكن فى استطاعة نابليون أن يكشف أمام قوات المقاومة موقفه فى السفر الى سوريا فأعلن أنه سيذهب الى مقاومة ابراهيم بك الكبير وبقية المماليك وانه يقصد بذلك تخليص المصريين من حكامهم الظالمين •

وبدأت الحملة سيرها فى يناير سنة ١٧٩٩ فاحتلت العريش وكانت فى أيدى القوات العثمانية ثم احتلت يافا بعد معارك ضخمة ومقاومة جبارة • وقد كان الفرنسيون كما هم الآن غاية فى العسف والظلم اذ أنهم لم يلبثوا أن أعملوا فى المدينة السيف •

وقد وصف المؤرخ ريبو الفرنسى هذا الموقف فقال : « ان ثلاثة آلاف من الأعداء قتلوا مرة واحدة ولكن الجنود الباقين قد زاد عددهم وتضاعفت جهودهم للأخذ بالثأر • ورأوا فى مصير اخوانهم الذين ذبحهم الفرنسيون نماذجا للانسانية الفرنسية وحصد نابليون تحت أسوار عكا ما غرسه فى شاطىء يافا » •

وقد قاومت عكا حصار الفرنسيين بعد أن ضرب عليها نابليون الحصار وضرب أسوارها وأبراجها بالمدافع ودارت معركة طاحنة بين الفرنسيين وجنود الحامية ارتد على أثرها الفرنسيون بعد أن نالتهم خسائر فادحة •

وقد قاومت عكا هجمات الجيش الفرنسى مقاومة شديدة واستمر الحصار أكثر من شهرين وعجز نابليون عن اقتحام عكا مما اضطر نابليون الى رفـــع الحصار عنها بعد ٦٢ يوما وكان قد منى بخسائر ضخمة كما فتك الوباء بعدد كبير من ضباطه وقواده واستحال وصول المدد من مصر ٠

وكانت قد وصلت نابليون رسائل من القاهرة تشير الى اندلاع الثورة مرة أخرى بها وتجدد المعارك فى الصعيد والثورات فى الشرقية والبحيرة ٠

وهكذا قضت عكا العربية على أحلام نابليون واضطرته الى أن يقول كلمتـــه الخـــالدة : « ان آمالى قد اتجهت الى الشرق واستهوتنى فتوحاته العظيمـــة وصرفتنى عن التفكير فى أوربا ولـــكن هذه الأحـــلام والآمال قد دفنت تحت أسوار عكا » ٠

وقد كان لوصول أنباء هزيمة نابليون فى عكا الى القاهرة أثرها البعيد فى تقوية الروح المعنوية للمقاومة الشعبية التى اندفعت فى كل مكان لتقضى على البقية الباقية من هذه الحملة وكان سفر نابليون الى فرنســـا على أثر ذلك علامة النهاية وقد بلغ قتلى الفرنسيين فى حملة سوريا رقما كبيرا فضـــلا عن قتل عدد ضخم من الضباط والقواد وأركان الحرب والمستشارين ٠

وقد اضطر نابليون أن ينسحب بجيشه ويدخل القاهرة فى ظلام الليل ٠



الظلم الذى أخرج جمال الدين ونفى عمر مكرم

أغسطس ١٨٠٥

نفى الاستبداد رجلين عظيمين فى شهر أغسطس : كانا منارتين من منارات الحرية فى مصر والشرق . « فعمر مكرم » المجاهد الذى حمل البيرق النبوى وقاد الشعب لمقاومة الحملة الفرنسية خلال ثلاث سنوات طوال حتى حرر البلاد ، والزعيم الشعبى الذى أسقط الوالى التركى خورشيد وقال له :

« ان أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو الا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، ولقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا أساء ولم يرض الناس عنه . بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه » .

قال عمر مكرم ذلك فى زمن كان الظلام يسود فيه الشرق ، ولا يدع لكلمة الحرية أن تعلن .. هذا الرجل العظيم حطمه محمد على وأخرجه ، أما الرجل الثانى فهو رائد الحرية فى الشرق كله « جمال الدين الأفغانى » الذى أشعل الثورة فى مصر وفى ايران وفى تركيا فحطم العروش المستبدة وسحق الملكية الظالمة .. أخرجه توفيق من مصر بعد أن وعده أن ينفذ برنامجه فى الاصلاح وقال له « أنت موضع أملى أيها السيد » فما أن ولى العرش حتى أمر باعتقاله واخراجه ولكن لم تمض خمس سنوات على نفى جمال الدين حتى وقف عرابى فى ميدان عابدين يقول للخديو كلمة لم يسمعها من قبل .

(١) نفى عمر مكرم

قلد « عمر مكرم » زعيم المقاومة الشعبية محمد على ولاية الحكم فى مصر يوم ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ بعد أن أخذ عليه المواثيق بأن يقوم على خدمة الشعب • وبعد أن تعهد محمد على بأن يقوم برعاية مصالح البلاد واستشارة العلماء وقادة المقاومة الشعبية والسير فى الحكم بالعدل • هذه الزعامة التى كانت صاحبة الحل والعقد فى البلاد والتى كانت من القوة بحيث استطاعت تحطيم الحملة الفرنسية • واسقاط الوالى التركى خورشيد • واختارت محمد على واليا على مصر • وقد ظل محمد على محتاجا الى مناصرة هذه الزعامة فى السنوات الأولى من حكمه فكان يستمع الى زعيمها عمر مكرم • ويستجيب لرأيه • وكان الشعب يلجأ اليه فى معارضة تصرفات محمد على ومظالمه •فكان محمد على يذعن لهذه المطالب ويحققها •

ولكن الأمر تغير شيئا فشيئا فى خلال أربع سنوات حتى جاء يوم ٩ أغسطس ١٨٠٩ حيث قضى محمد على بنفى عمر مكرم • ذلك أن محمد على مضى يتخلص من المقاومة الشعبية شيئا فشيئا • ثم قضى على المماليك • وظل يحطم هذه القوة التى أوصلته الى الحكم • ومرجع هذا انه كان مستبدا بطبعه ولم يكن راغباً فى تدخل أهل الرأى فى شئون حكومته وسعيهم فى رفع المظالم عن الناس • وقد بدأ فأوقع بين العلماء وأثار بينهم روح التنافس والتحاسد على المطامع الشخصية • وأثارهم على عمر مكرم نفسه لمنزلته من الشعب • فأوقع بينه وبينهم • ولم يلبث أن منحهم من الأملاك والأموال ما ضمهم به الى صفه • فمضوا فى طريقه ووافقوه على خططه • وخرجوا على عهدهم للشعب ورابطتهم مع عمر مكرم •



أما عمر مكرم فقد كان مفطوما عن الأهواء والمطامع • مقدرا ثقة الناس به مؤمنا بحق الشعب فى توجيه محمد على الى الحق الذى حاد عنه • ورفع الظلم اذا وقع بهم ، وقد وقعت الجفوة بينه وبين محمد على عندما أحس بأن الحاكم المستبد قد امتنع عن الاستماع الى ما يعرضه عليه من مظالم الشعب • عند ذلك قاطع « عمر مكرم » مجلس محمد على •

وحاول محمد على اغراء عمر مكرم بالمال • ولكن عمر مكرم كان أكبر من أن يخدع عن أهداف المقاومة الشعبية فى اصلاح الحكم • هنالك أدرك أن عمر مكرم لن تلين قناته وانه مصمم على المقاومة •

وعندما أراد محمد على أن يجتمع بعمر مكرم فى القلعة ، رفض عمر مكرم أن يصعد اليه وقال : اذا أراد أن يخاطبنى فلينزل الى منزل السادات ٠

وفى خلال هذه الأزمة مضى رسول السوء بالوقيعة بينهما ٠ فازدادت هوة الخلاف ٠٠ وكان محمد على قد وضع يده على كل شيء ولم يعد يخشى صولة عمر مكرم عند ذاك أصدر أمره بنفيه الى دمياط ٠

وقد استقبل عمر مكرم المحنة بايمان صادق وعزيمة ثابتة ٠ وكان رحيله مؤثرا فان الشعب تجمع حين علم بالخبر ٠ وأدرك عظم النكبة وأحس بأنه لم يعد هناك اللسان الذى يدافع عنه أو يحول بينه وبين مظالم محمد على ٠

وقد صور الجبرتى وداع عمر مكرم فقال : « لقد شيعه الكثيرون وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه واغتم الناس لسفره وخروجه من مصر لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس لتعصبه لنصرة الحق فسار الى بولاق ونزل فى المركب وسافر من ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج اليهم فى دمياط » ٠

وقد عاش عمر مكرم فى منفاه تحت المراقبة والحراسة الى أن أذن له بالانتقال الى طنطا بعد أن أمضى ٤ سنوات فى دمياط ٠ ثم أعيد الى القاهرة ٠ غير انه لم يلبث أن رأى تجمع الناس حوله مرة أخرى ، ذاكرين فضله وأثره وعظمته ورأى محمد على أن قوة عمر مكرم توشك أن تعود لتزعجه وتقاوم طغيانه ، وبالرغم من شيخوخة عمر مكرم واعتكافه فى بيته بساحل أثر النبى فان محمد على لم يلبث أن رده مرة أخرى الى المنفى فى ١٥ ابريل ١٨٢٢ وتلقى المحنة هذه المرة كالمرة الماضية بالصبر ولكنه لم يلبث أن توفى بعد شهور قليلة ٠

(٢) اخراج جمال الدين الأفغانى

كان جمال الدين الأفغانى قد أمضى سهرته فى قهوة متاتيا يتحدث كعادته بين تلاميذه ومريديه ، وما كاد الليل ينتصف حتى ودع أصحابه ومضى فى طريقه الى منزله ، هو وخادمه حتى أحاط به الجند وساقوه الى المخفر وأودعوه به ، ومنعوه من العودة الى بيته ليحمل ملابسه ٠ وتركوه يقضى الليل

على الأسفلت • وفى الصباح حمل فى عربة مقفلة تحت المراقبة الى القطار • الذى انطلق به الى السويس ومنها أنزل الى البحر فى باخرة حملته الى بومباى فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه والوقت صيف والحرارة شـــديدة حتى تقرح جسده ولم يكن معه من النقود أكثر من ثلاثة جنيهـات عثمانية وبعض قروش من الفضة • وهذا المبلغ أخذ منه فى السويس ، فنزل البحر ولم يكن معه شىء •• ولما ودعه لفيف من الايرانيين فى السويس عرضوا عليه مبلغا من المال فرفضه فى اباء وقال ان الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب ••

وفى نفس الوقت كان بعض تلاميذه قد ذهبوا الى مسكنه فوجـــدوا بعض أعوان الضبطية يعبثون كتبه فدهشوا ورجعوا وكان عنـــده كتب كثيرة فى فنون شتى •

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى ولى فيه الخديو « توفيق » الحكم بدلا من والده اسماعيل وكان قد التقى كثيرا بجمال الدين واستمع الى آرائه فى الحكم ودعوته الى الدستور والاصلاح وتأهيل الشعب لحكم نفسه والقضاء على استبداد الخديويين والولاة • وكان يردد دائما كلمته المعروفة :

« انك موضع أملى فى مصر أيها السيد »

ولطالما وعد جمال الدين بأنه اذا تولى الحكم فسيحقق رغبـــاته وآراءه ، ولكنه كان غادرا شأن أهله جميعا من أسرة محمد على فانه ما كاد يتولى الحكم حتى كان أول قرار أصدره هو نفى جمال الدين ، واخراجه من مصر على هذه الصورة المهينة • وصـــــدر بيان جاء فيـــه ان جمـال الدين من المهيجين ، الذين يقومون بانشاء الجمعيات السرية للاغتيال وألزمت الصحف بنشر الأمر بنفى جمال الدين وما فيه من التقريع الشديد • وعندما امتنعت احدى الصحف عن نشره عطلت •• ولكن جمال الدين الأفغانى الذى قضى فى مصر ثمـــانى سنوات كان قد أشعل فيها نار الثورة فعلا • فلم تلبث الثورة العرابيـــة أن اندلعت بعد خروجه بخمس سنوات وساقت الى توفيق المصرى الفلاح الذى قال له أول كلمة حق صكت أذن ابن الأسرة العلوية التى كانت تؤمن بأنهـــا ورثت هذه البلاد وأهلها وأنهم عبيد احساناتها •

فقد وقف عرابى بعد اخراج جمال الدين بسنوات قليلة فى ميدان عابدين راكبا فرسه وقال لتوفيق : لقد خلقنا الله أحرارا ولن نورث بعد اليوم •

أول دستور شعبى

٧ فبراير سنة ١٨٨٢

اليوم ونحن نعيش أضخم مرحلة فى حياتنا الدستورية والنيابية نعود الى الوراء لندرس كيف تطورت هذه الصورة حتى وصلت الى الصورة المثلى . وهى تبدو فى صورتها الأولى يوم ٧ من فبراير سنة ١٨٨٢ عندما صدر أول دستور شعبى نتيجة لموقف عرابى فى ميدان عابدين ومطالبه الأربعة التى قدمها الى الخديو وكان من أبرزها اعادة الحياة النيابية واعلان الدستور .

وكان مجلس شورى النواب قد بدأ عمله فى ٢٥ من نوفمبر ١٨٦٦ بسراى القلعة فى أواخر أيام اسماعيل تحت ضغط المقاومة الشعبية واضطرار اسماعيل الى ارضاء الشعب فقبل انشاء هذا المجلس من ٧٥ عضوا وكانت جلسات المجلس سرية .

وفى اليوم الذى أعيد فيه افتتاح مجلس شورى النواب فى ١٧ من يوليو ١٨٨٢ ابان حكم توفيق كان الشعب كله قد تجمع حول المجلس واقتحم غرفات المجلس . تعلوه فرحة النصر لتحقق هذا الأمل الذى حققته قيادة عرابى للأمة .

وقد جري العمل منذ اليوم الأول لاجتماع مجلس النواب على اعداد الدستور الذى قدم للمجلس فى ٢ من يناير ١٨٨٢ . ولكن فرنسا وبريطانيا رفضتا أن تتحقق هذه الخطوة الضخمة فى حياة مصر السياسية فقدمتا انذارهما الى مصر فى ٧ من يناير ١٨٨٢ ثم وقفت الدولتان فى وجه مجلس النواب وطلبتا ألا يخول حق تقرير الميزانية . غير أن الحركة الوطنية استطاعت أن تقاوم وتقف فى وجه الدولتين فسقطت الوزارة القائمة اذ ذاك واضطر الخديو الى تكليف محمود سامى البارودى بتأليف الوزارة التى كان عرابى وزيرا للحربية فيها فأعلنت الدستور . وكان هذا ارهاصا لتحطيم حركة عرابى عن طريق ضرب الاسكندرية واحتلال البلاد .

وبعد الاحتلال أرادت بريطانيا أن تخدع الوطنيين فأنشأت مجلس شورى القوانين الذى شكل من ٣٠ عضـــوا من بينهم ١٦ منتخبون ٠ والى جـــواره قامت الجمعية العمومية وكان موقفها سلبيا الى فترة طويلة ٠

غير انه عندما اشتدت الحركة الوطنية التى يقـــودها مصطفى كامل تأثر مجلس شورى القوانين بها ووقف من الاحتـــلال مواقف مشرفة ٠ اذ رفض مناقشة الميزانية التى أعدها السير الوين بالمر المستشار المالى البريطانى ٠كما رفض اعتماد نفقات الاحتلال وانتقد سياسة الحكومة فى الاحتلال ونص قراره على ذلك فى عبارة جريئة « المجلس يرى عدم المصادقة على المبلغ المقرر لجيش أجنبى لا تدعو الحالة الى وجوده » ٠ كما وافق على منح الســـــودان اعتمادا اضافيا « باعتبار أن الســـودان جزء متمم لمصر غير منفصل عنها بحـال من الأحوال » ٠

وطالب عام ١٩٠٨ باعداد مشروع قانون بمنح الأمة حق الاشتراك الفعـلى فى ادارة أمورها الداخلية ودعا الى ايجاد مجلس نيابى منتخب ٠

وقد أصدر مجلس شورى القوانين أخطر قرار فى تاريخ الحياة النيـابية جميعا قبل الثورة ٠ وهو رفض مد امتياز شركة قناة السويس الذى عرضـه سعد زغلول ودافع عنه وفضحه شهيد الوطنية محمـــد فريد فى اللواء فأثار بذلك هزة فى مختلف الدوائر وقد تجمع الشعب حول دار مجلس شـــورى القوانين فى أثناء انعقاد المجلس لبحث طلب مد امتياز شركة قناة السويس الى سنة ٢٠٠٨ بدلا من ١٩٦٨ وتوالت الهتافات ضد المشروع مما أكد اتجـــاه النواب الذين صدقوا بالاجماع على رفض القرار ٠

ويذكر فى هذا الصدد البرلمان الذى عقده أحمد عرابى باشـا ابان مقاومة احتلال بريطانيا ودعا اليه النواب والأمراء ورجال القضاء والعلماء وشـيخ الاسلام والمفتى ووكلاء النظارات والأعيان للمداولة وكان أول قرار له هـــو

لزوم الاستمرار فى الحرب كما أصـــدر قرارا باعتبار الخديو توفيق خائنـا ويلزم عزله ٠

ومن أبرز شخصيات مجلس نواب عرابى: حسن موسى العقاد ، وعبدالسلام المويلحى فقد قاوما اتجـــاه الوزراء الرجعيين الذين كانوا يقـاومون الحركة الوطنية ويميلون الى الخديو وكان للمويلحى وقفات رائعة وعبارات ثائرة تدل على صدق ايمانه ٠

وقد أثر عن محمود سامى البارودى انه أول من تكلم عن الجمهورية فى بيت حسن موسى العقاد ومن ذلك عبارته : لقد كنا نرمى الى جعل مصر جمهورية مثل سويسرا ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهـذه الدعوة لأنهم متأخرون عن زمنهم ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت ٠

ولقد كانت هذه كلها ارهاصات لدستور وبرلمان تصـــدرهما ثورة عظمى كالثورة المصرية العربية التى قادها جمال عبد الناصر وحقق بها أحلام عرابى والبارودى وكل أولئك الأحرار الأبرار الذين قاوموا الاســـتعمار فى ابانه والاستبداد فى ذروته ٠

واذا كان أول دستور شعبى صدر فى ٧ من فبراير ١٨٨٢ فان الجمهورية العربية المتحدة اليوم انما تصور فى حقائق واضحة تلك الصـور التى كانت تملأ قلوب المصلحين وتضعها موضـــع التنفيذ بعد بضعة وسـبعين عاما فى تجربة جديدة لم يسبق لدولة فى العالم كله أن نفذتها وهى تجربة الاتحـاد القومى كنواة لقيام المجتمع الديموقراطى الاشتراكى التعاونى ٠

الثورة العرابية

٢٦ من يونية ١٨٩٧

تعد الثورة العرابية التى قام بها البطل أحمد عرابى وأصحابه محمد عبيد ومحمود فهمى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وطلبه عصمت وعلى الروبى ويعقوب سامى ومحمود سامى البارودى • حلقة من أبرز حلقات الكفاح الشعبى المصرى العربى • ترتبط بثورة عمر مكرم التى سبقتها بأكثر من ثمانين عاما • والتى كانت تستهدف التخلص من الاستبداد التركى ثم لم تلبث أن فشلت بعد استيلاء محمد على الحكم •

كان عرابى فى حقيقة أمره جنديا أحس ما يعانيه زملاؤه من ظلم الارناؤوط والشراكسة وكان الى ذلك يحس قسوة سلطان أسرة محمد على على الشعب وما خلفه عهد اسماعيل من ديون وفساد • وكان جمال الدين الأفغانى قد أمضى بمصر ثمانى سنوات تركت لهيبا وتأهبا لمقاومة الأسرة الباغية وحكامها الطغاة •

ولقد أخذ عرابى يبث فى نفوس الضباط المصريين فكرة الاتحاد والمطالبة بحقوقهم ثم وسع آفاق فكرته فاتصل بالشعب وعمل على ما أسماه « انتشال البلاد من وهدة الاحتلال ومن هاوية التلاشى التى سقطت فيها أو كادت بتفريط الحكومة فى حقوق الأمة وبيعها الكثير من الأراضى • مع تعيين كثير منهم بالمرتبات الفادحة وسعيها فى رفع الأحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية مما ينذر بأوخم العواقب » •

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث يقف عرابى فى أربعة آلاف من الجنود فى ميدان عابدين بمدافعهم وأسلحتهم ووقف وراءهم الشعب كله !!••

وكان الموقف رهيبا أفزع الخديو الضعيف الذى رأى أن حرسه الخاص قد تخلى عنه فى هذه اللحظة الحاسمة وانضم الى الجيش الثائر •

وقال عرابى للخديو يوم ٩ من سبتمبر ١٨٨١ تلك الكلمة الخالدة :

« لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا أو عقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث بعد اليوم » .

ونجحت ثورة عرابى واستمع الخديو لمطالب الشعب . وتكونت حكومة وطنية يرأسها « شريف » ويسندها الجيش . ودعت الحكومة مجلس النواب للانعقاد بعد أن أجريت الانتخابات . ولكن انجلترا أحست بأن هذا الاتجاه سيقضى على آمالها فى احتلال مصر فأرسلت بالاشتراك مع فرنسا مذكرتها المعروفة .

ووقعت حوادث الاسكندرية التى دبرها الانجليز . وانضم الخديو الى بريطانيا وانضم الشعب كله الى عرابى . نفس الشعب الذى وقف وراء عرابى يوم عابدين . ودخل الانجليز الاسكندرية بعد أن دافع عنها المصريون دفاعا مستميتا . وأذاع ولسلى بلاغا جاء فيه انه « بأمر الحضرة الخديوية » يعلن قائد الجيوش الانجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى ارسالها تجريدة عسكرية الى القطر المصرى ليست الا لتأييد سلطة الحضرة الخديويةوعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه .

وأيدت البلاد عرابى وجمعت له المال والاعانات وتطوع الشباب من كل مكان وفى كل يوم كانت ترد الى معسكر الجيش فى كفر الدوار اعانات الأهلين من النقود والشعير والحبوب والسمن والخضر والفاكهة والخيل والمواشى . وقد وصف عرابى تأييد البلاد له فى مذكراته فقال « بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى . ولا أكثر من ألف ومائتى حلة عسكرية فى المخازن وحتى هذه لم تكن كاملة . ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب . ولكن عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش ما تزيد قيمته عن مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية » .

واستفاد الخديو سحق المقاومة الشعبية والقوة العسكرية معا . وكسب الى صفه سلطان باشا الذى كان نائبا عنه فى رشوة البدو القاطنين غربى

القناة من الاسماعيلية ورأس الوادى والصالحية وما حولهـا . ورافق سلطان باشا الجيش نائبا عن الخديو ليقدم لهم كل المساعدات ويمكنهم من الزحف واستطاع أن يستميل اليه مشايخ العربان الذين أصبحوا مرشـــدين وأدلاء للجيش البريطانى الزاحف فى تلك المناطق الصحراوية .

وهـكذا ارتبطت هزيمة عرابى بالخيـــانة . ذلك أن عرابى قاوم الجيش البريطانى فى كفر الدوار وأرغمه على التوقف ثلاثة أسابيع مما ألجأ الانجليز الى الخيانة واقتحام القناة ضاربين عرض الحائط بالتعهدات الدولية .

لقد أحاطت الخيانة عرابى من ثلاثة جوانب : خيانة الخديو ، وخيـــانة البريطانيين ، وخيـــانة دلسبس الذى منعه من ردم القنـــاة ووعده بأن ينزل جندى فرنسى كلما نزل جندى بريطانى .

كانت معركة التل الكبير ـ التى أخذ بها العرابيون على غرة بعد أن أبلغهم عيون عرابى أن الانجليز لا يخرجون هذه الليلة ـ مؤامرة وليست معركة لأن العرابيين استيقظوا على تطويق القوات البريطانية لهم . ولذلك لم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقـــة . فقد كان سلطان باشا قد عهـــد الى الأمـيرالاى عبد الرحمن حسن بحراسة المقـــدمة . وكان على يوسف خنفس على قيـادة خطوط الخنادق المتوسطة وتم ارشاد الانجليز بوضع المصـــابيح فى مواقع الاستحكامات بعد أن أخليت من الجنود . وقد سجل عرابى فى مذكراته أن القائد على خنفس خانهم وأفشى التدبير الذى وضعوه للمعركة قبل وقوعها . وأفضى الى الجنرال ولسلى وسلمه الرسم الذى وضع لها وانه لم يعلم بهـــذه الخيانة الا بعد الهزيمة .

وقد حوكم عرابى وأصحابه وقضت المحكمة عليهم بالاعدام وخفف بالنفى الى سيلان وصودرت أملاكه وأمواله . ومضى عرابى الى منفاه مع زملائه فأمضى تسعة عشر عاما ثم أفرج عنه عام ١٩٠١ .

وقد ظل تاريخ ثورة أحمد عرابى مشوها لم ينصف قائدها ولا رجاله الا نفر قليل من المؤرخين حتى جـــاءت ثورة ١٩٥٢ فردت الى عرابى أمواله والى تاريخه اعتباره . والحق أن عرابى قد أوقد بثورته جذوة الوطنية التى كانت بعيدة الأثر فى مختلف حركات التحرر الوطنى والانتفاضات التى تبعتها حتى جاءت ثورة ١٩٥٢ الكبرى التى حققت ما عجزت عنه ثورة عمر مكرم وثورة عرابى وثورة ١٩١٩ .

يوم قصر النيـــــل

أول فبراير ١٨٨١

يعد يوم قصر النيل من أبرز مقدمات الأحداث • لا فى الثـــورة العرابية وحدها ، بل فى يقظة الوطنية المصرية واتجاهها الى مقاومة التيار العـــدائى والشعور الأجنبى الذى كان يفرضه على الجيش المصرى أمثال عثمـــان رفقى بايثاره الضباط الشراكسة والترك فى الترقيـــات والتعيينات مع اضـطهاد المصريين • وكان من تصرفاته التى أثارت روح السخط والتبرم اعداد تعديل لقانون القرعة العسكرية من شأنه أن يحول دون ترقى الضباط تحت السلاح وقصر الترقيات على المتخرجين من المدارس الحربية •

وقد فهم عرابى واخوانه أن هـــذا القانون انما قصد به الى منع ترقيـــة المصريين وقصر الترقيات على الضباط الشراكسة والترك وبذلك يغلق هـــذا الباب المفتوح الذى مكن لكثير من الوطنيين أن يصلوا الى مرتبة الضباط ومنهم عرابى وزملاؤه على حد تعبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى •

وقال عرابى متهكما : ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها وسرعان ما اجتمع الضـــباط : عبد العال حلمى ، خضر خضر ، عـــلى فهمى الديب ، محمد عبيد ، ألفى يوسف ، أحمد عبد الغفار ، بمنزل عرابى • وفى هذه الليلة تم تشكيل الضباط الذين قاموا بالثورة العرابية • وقد اختير أحمد عرابى رئيسا لهم •

وقال الضباط لأحمد عرابى : اننا فوضنا اليك هذا الأمر ، فليس فينـــا من هو أحق به وأقدر عليه منك • اننا نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنـــا وأقسموا على السيف والمصحف •

وبدأ عرابى فكتب مذكرة ضافية الى رئيس الوزراء « رياض باشا » شارحا وجهة نظر الضباط المصريين حيال تعصب عثمان رفقى لبنى جنسه ، واجحافه بحقوق الضباط الوطنيين • وطالب بوضع حد لما يصيبهم من اضطهاد وعزله من منصبه • ولم يقف عرابى فى مذكراته عند هذا الحد • بل طالب بتشكيل

مجلس نواب من نبهاء الأمة وابلاغ الجيش العامل الى ١٨ ألف جندى وتعديل القوانين العسكرية لكى تكون محققة للعدل والمساواة بين رجال الجيش جميعا • وقد وقع الضباط على المذكرة وبدأوا فى وضع الخطط الكفيلة بالمحافظة على حياتهم اذا جرت محاولات للبطش بهم • وذهب الاميرالايات الثلاثة : أحمد عرابى ، على فهمى الديب ، عبد العال حلمى الى وزارة الداخلية حيث قدموا المذكرة • فلما عرضت المذكرة على مجلس الوزراء برئاسة الخديو تقرر محاكمة الضباط الثلاثة أمام مجلس عسكرى وصدر الأمر بالقبض عليهم وسجنهم • وقد دعاهم عثمان رفقى لمقابلته بديوان الوزارة بقصر النيل فلما وصلوا صدر الأمر بالقبض عليهم تمهيدا لمحاكمتهم وانتزعت منهم سيوفهم وأرسلوا الى قاعة السجن بين صفين من الضباط الشراكسة فى أيديهم السيوف مسلولة وأسرع عثمان رفقى فعين بدلا منهم فى آلاياتهم الثلاثة وتحرج الموقف أمام الضباط الوطنيين • عندئذ أسرع البكباشى محمد عبيد فحشد القوات وسار بقوات كبيرة قاصدا قصر النيل حيث الضباط المعتقلون• فلما وصل الديوان ضرب الحصار حوله • وأمر بقية الجنودبالهجوم عليه فهجم الجنود حاملين بنادقهم وفى أطرافها الرماح واقتحموا الديوان صائحين صاخبين فوقع الرعب فى نفوس القواد والضباط وفى مقدمتهم عثمان رفقى وزير الحربية ولاذوا بالفرار • وفر عثمان رفقى من احدى النوافذ واقتحم الجنود السجن باحثين عن الضباط المعتقلين وكسروا الأبواب والشبابيك وكل ما عاقهم عن السير الى أن وصل اليهم محمد عبيد وفك اسارهم وخرج الضباط ظافرين وساروا يحيط بهم الجند الى ميدان عابدين فلما بلغوه استقبلوا بالتعظيم العسكرى وعزف الموسيقى واحتشد الناس فى الميدان لمشاهدة هذا المنظر الذى لم يألفوه من قبل ووقف عرابى خطيبا بأعلى صوته وأثنى على اخلاص الضباط والجند واتحادهم •• وكان احتشاد الجنود بأسلحتهم فى ميدان عابدين قد هز الخديو وأرعبه وحمله على قبول الأمر الواقع وأذعن الخديو لطلب عرابى وزملائه ، فعزل عثمان رفقى وعين سامى البارودى وزيرا للحربية وكان نصيرا للعرابيين • وكان هذا الموقف مقدمة لموقف آخر أشد أهمية هو مظاهرة عابدين فى ٩ من سبتمبر ١٨٨١ بعد ذلك بتسعة أشهر •

ويعد يوم قصر النيل من أبرز أحداث المقاومة الشعبية التى بزغ فجرها فى هذا الوقت الباكر الذى كان سلطان القصر فيه طاغيا ومستبدا •

هزيمة الانجليز فى كفر الدوار

٢٠ من أغسطس ١٨٨٢

من أيامنا الحاسمة فى تاريخ كفاحنا مع الاستعمار يوم هزيمة الانجليز فى كفر الدوار . ذلك أن معارك كفر الدوار تثبت بأجلى صور اليقين أن كفاية الجيش المصرى وقوة مقاومته أوقفت الانجليز شهرين كاملين عن احتلال القاهرة .

ذلك أن الغدر البريطانى استولى على الاسكندرية بعد ضربها بمدافع الأسطول فى ١١ من يوليو ١٨٨٢ بدون حجة شرعية أو قانونية واضحة . ولكن ذلك لم يكن ليمكن الانجليز من السيطرة على البلاد . فقد قاومت القوات العرابية فى كفر الدوار مقاومة فعالة ضخمة فى أكثر من معركة . وهزمت البريطانيين فى أكثر من موقعة مما اضطرهم الى التآمر بعبور قناة السويس من ناحية الشرق ، والاستعانة بالخديو وبعض الخونة للوصول الى معسكر عرابى ومباغتته ليلا بأسلوب همجى ليس فيه صورة المعركة الحربية الحقيقية .

ولقد عمل عرابى منذ نزول القوات البريطانية الى الاسكندرية على تحصين مواقعه فى الطريق من الاسكندرية الى كفر الدوار . حيث أنشأ بها الاستحكامات المنيعة فكانت مؤلفة من ثلاثة خطوط للدفاع يبعد كل واحد عما يليه خمسة كيلو مترات . وأمام كل خط خندق عمقه خمسة عشر قدما . كما أقيمت المعاقل على جميع المرتفعات والآكام . وركبت فيها المدافع وعددها خمسون مدفعا .

وقد أصبحت هذه المنطقة الممتدة من عزبة خورشيد الى كفر الدوار غاية فى المنعة . وقد كانت بحيرة أبى قير وملاحة مريوط جناحى خطوط الدفاع ، وقد صمد فيها الجيش المصرى وقاوم الانجليز خمسة أسابيع كان فى خلالها يرد هجماتهم ويطاردهم حتى الاسكندرية .

وقد سد محمود فهمى قائد المعركة ترعة المحمودية . ومنع المياه العذبة عن الاسكندرية . وركب المدافع على السد ليكون فى مأمن من الهجوم .

وفى معركة الرمل (٥ من أغسطس ١٨٨٢) تقدم البريطانيون بأورطتين من المشاه وأورطتين من الفرسان ، فصدهم المصريون وهاجموهم هجوما شديدا واضطروهم الى التقهقر اذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصف ساعة ٠

وفى معركة عزبة خورشيد (٧ من أغسطس ١٨٨٢) هاجم الانجليز مقدمة الجيش فى كفر الدوار فلما التقوا بالمصريين صمد هؤلاء لقتالهم ٠ ودافعوهم دفاعا مجيدا ٠ ودام القتال أربع ساعات انتهت بتقهقر الانجليز منهزمين ٠ ثم لم يلبث المدد أن وصل الى الانجليز من مالطة وطرابلس وقبرص وجبل طارق فاجتمع فى الاسكندرية نحو أربعة عشر ألفا من المشاة ٠ غير فصائل الفرسان والمدفعية ٠

وتجدد القتال مرة أخرى بين الاسكندرية وكفر الدوار عقب وصول جنرال ولسلى قائد الحملة البريطانية ٠

ففى ١٩ من أغسطس ١٨٨٢ تحركت قوة كبيرة من الانجليز الى مقدمة الجيش المصرى ودارت معركة شديدة بينهم وبين المصريين فصدهم المصريون عن التقدم بعد أن كبدوهم خسائر جمة ٠ ودام القتال ثلاث ساعات حتى غروب الشمس ٠ وفى أيام ٢٠ و٢١ و٢٢ من أغسطس هاجم الانجليز مواقع الجيش المصرى فى كفر الدوار فدافع عنها المصريون خير دفاع ٠ وانجلت هذه المعارك عن ارتداد الجيش الانجليزى ٠

وهنا أيقن البريطانيون بأنه لا سبيل للوصول الى القاهرة عن طريق معارك مفتوحة فلجأوا الى الغدر والحيلة ، حيث استطاعوا بواسطة الخديو خداع بعض الضباط واغراء بعض الاعراب ، كما احتلوا قناة السويس ، وعبروا منها الى الشاطىء الغربى وفى نفس الليلة التى كانوا قد أعدوا عدتهم للزحف على معسكر العرابيين فى التل الكبير كانت الدلائل كلها تشير الى أن الانجليز لن يخرجوا فى هذه الليلة ٠ لذلك لم تكن هناك معركة بحال ، انما كانت مباغتة غادرة ٠

وهزائم الانجليز فى معركة كفر الدوار تضاف الى هزائمهم السابقة فى رشيد عندما هاجموا مصر عام ١٨٠٧ واستطاع الشعب هزيمتهم ٠ وكانوا بقيادة فريزر الذى أرغم على التسليم والانسحاب قبل أن تصل القوات الرسمية ٠

ولقد ظلت هزيمة الانجليز فى كفر الدوار من المواقع التى لا تذكر لعرابى بالفضل بل ان كتب التاريخ القومى لم تتناولها الا بقليل من التفصيل ، حتى ذكرها الرئيس جمال عبد الناصر فى معرض حديثه عن كفاح الشعب فى مقاومة الاستعمار كموقف من المواقف الهامة ، اذ استطاع عرابى أن يسحق القوات البريطانية ويوقفهم شهرين كاملين عن الوصول الى العاصمة ٠

عرابى أول ثائر وقف فى وجه الاستعمار

٩ من سبتمبر ١٨٨٢

واليوم والأمة العربية تقاوم الاستبداد والاستعمار وتتنادى نحو الوحدة الكبرى علينا أن نذكر كيف وقف أول جندى ثائر فى العالم العربى كله ليفرض ارادة الشعب على الخديو الظالم وليجابه الحاكم الطاغية بكلمة الحق . فيذهل ويضطرب ويترك مكانه أمام القصر لأنه لا يقوى على موقف ترد فيه كلمته ويعتسف رأيه ويقال له لأول مرة ما لم يكن فى الحسبان أن يقال له وقد ملأه العجب أن هناك من أبناء الفلاحين من يستطيع أن يرده عن طغيانه ويسفه اعتقاده الباطل فى أن هذا الشعب عبيد له وأن له أن يفعل ما يشاء دون أن يعارض أو يوقف عند حده .

ولا شك أن يوم ٩ من سبتمبر ١٨٨٢ يعد نقطة تحول ضخمة فى تاريخ مصر والأمة العربية كلها فقد كان الملوك والأمراء فى ذلك الوقت آلهة لا يراجعون . تنحنى لهم الجباه . وتذلل لهم موارد الدول . ويختفى من على وجه الأرض من يستطيع أن يهمس منتقدا لهم أو ينبس ببنت شفه أو يعارض رأيا أو تصرفا . وكان أبناء محمد على وأحفاده قد خيل اليهم انهم من دم أزرق وأن المصريين ليسوا أكثر من خدم فى ضيعة كبيرة يملكونها . كذلك أراد محمد على عندما سحب منهم عقود أرضهم وأحرقها وفرض عليهم أن يعملوا فى نفس الأرض خولا وخدما . كذلك ورث اسماعيل وتوفيق هذا المعنى وعاش فى أعماق خواطرهم كأنما هو حقيقة واقعة .

ولكن عرابى الجندى الفلاح الذى قاد الجيش لأول مرة وحاصر قصر عابدين وتقدم من الخديوى فوق فرسه وسلاحه مشرع وقد أحاطت به كتيبة من حرسه لم يهتز أمام منطق الخديوى الباطل ولم يتردد فى الرد عليه بعبارة أشد قوة من عبارته .

ولا شك أن العرش المصرى قد اهتز فى ذلك اليوم وانكشفت قوائم الظلم التى يعتمد عليها . وقد أذعن الخديوى لعرابى واستسلم لمطالبه واضطر أمام

قوة عرابى أن يستجيب لرغبته فى وضع الدستور واقالة الوزارة وبذلك شق الجيش المصرى طريقه لأول مرة ليأخذ مكانه الحق بعد أن كانت العناصر الجركسية والتركية متغلبة على قياداته تحجب الشخصية العربية وتحول دون المصريين والمراكز الكبرى ٠

ولقد كان عرابى فى موقفه يوم عابدين ممثلا للشعب والأمة ٠ وهو أول من قال بأن رجال الجيش هم أبناء هذا الشعب ٠ وهذا الشعب الذى يقف خلف صفوف الجيش انما يؤيده فى مطالبه ، والواقع أن عرابى كان قد آمن بضرورة اتخاذ خطوة حاسمة لمواجهة الخديو بمطالب الأمة والجيش وفى سبيل ذلك اجتمع بعدد كبير من وجوه البلاد وأعيانها تناول معهم بالبحث ما يجدون من ظلم وما يطمعون الى تحقيقه من أوجه الاصلاح ٠

وفى نفس الوقت كان الخديو والحكومة قد استسلموا للقناصل وخضعوا للفرنسيين والانجليز ٠ يقول عرابى فى مذكراته مصورا هذه المرحلة « ثم أخذت فى نشر أفكارى بين علماء الأمة وأعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان طالبا منهم مساعدتى فى حفظ الأمن حتى نتفرغ للنظر فى مصالح البلاد ونتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال وهاوية التلاشى التى سقطت فيها أو كادت بتفريط الحكومة فى حقوق الأمة وبيعها أكثر الأراضى للأجانب ٠ وأفضيت اليهم بأننا قد اعتمدنا على البارى سبحانه وتعالى فيما اعتزمناه من منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقهم وسبيل ذلك اسقاط الوزارة الحاضرة التى لا تريد بالبلاد خيرا وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه فى الوصول بنا الى الحرية المنشودة ٠ وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر وسلمتنا عرائض النيابة عنها وفوضت الينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن الاستبداد معلنة تضامنها معنا فى كل ما نقوم به من أعمال الاصلاح وما ينتج عنها من النتائج »

ولعله من الضرورى أن نورد هنا نص الحوار الذى دار بين عرابى وبين الخديو فى ذلك اليوم لأنه يكشف عن طبيعة التأثر وطبيعة الطاغية :

الخديو : ما هى أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟

عرابى : جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة ٠

الخديو : وما هى هذه الطلبات ؟

عرابى : هى عزل رياض باشا • وتشكيل مجلس النـــواب وابلاغ عـدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات •

الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها • وأنا ورثت ملك هذه البـلاد عن آبائى وأجدادى • وما أنتم الا عبيد احساناتنا •

عرابى : لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا أو عقارا فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم •

يقول عرابى فى مذكراته أن القنصل الانجليزى (كوكس) أشـــار على الخديو بعـد ذلك بالرجوع الى السراى وعاد كوكس ومعه كلفن المراقب المـالى الانجليزى لمخاطبة عرابى كرسول من قبل الخديوى قال : ان طلب اســقاط الوزارة وتأليف مجلس النواب من حقوق الأمة لا من حقوق الجيش ولا لزوم لطلب زيادة الجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك •

قال عرابى : اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمـــد اليها الا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العسكر الذينهم اخوانهم وأولادهم • فهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخـــير والمنفعة • وانظر الى هؤلاء المحتشـــدين خلف العساكر فهم الأهـالى الذين أنابونا فى طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ •

كوكس : علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة وهـذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها •

عرابى : كيف يكون ذلك ومن الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا فاعلم اننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا •

كوكس : ومن أين لكم القوة التى ستدافعون بها ؟

عرابى : عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليونا من العســاكر يدافعون عن بلادهم يسمعون قولى ويلبون اشارتى •

كوكس : وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب •

عرابى : أقول كلمة أخرى •

كوكس : وما هى ؟

عرابى : لا أقولها الا عند اليأس والقنوط ·

وهكذا يبدو عرابى فى حواره فى اهاب الثائر الذى يعرف هـــدفه معرفة واضحة ولقد اضطر الخديو وأذعن أمام هـــذه المظاهرة الضخمة أن يقيـــل الوزارة ولم يلبث أن حقق مطلب عرابى الآخر بتشـــكيل أول مجلس نيـــابى مصرى ·

ولقد كان عرابى فى طريقه الى الثورة الكبرى لولا الخيانة ولذلك أكملت ثورة ١٩٥٢ ما عجز عنه عرابى وخلصت البلاد من حكم أسرة محمد على التى كانت لا ترى فى الشعب الا ميراثا ورثته عن آبائها وأجـدادها ولا ترى قادة الشعب الا عبيد احساناتها ·

ولقد قرر عرابى القاعدة الدستورية الصحيحة فى هذا اليوم وهو أن الله قد خلق الناس أحـــرارا ولم يخلقهم تراثا ولا عقارا وانهم لن يورثوا بعـــد اليوم ··

يوسف العظمة في ميسلون
واحمد عرابي في كفر الدوار

يحفل تاريخنا العربي بأيام خالدة من المقاومة . مقاومة الاستعمار في كل مكان . عندما كنا – وما زلنا – نقف كتلا متراصة بأجسامنا لنواجه حمم المدافع ونيران القنابل لا يردنا ذلك عن ايماننا بحقنا في الحرية .

كنا كذلك في مصر نواجه البريطانيين في كفر الدوار والتل الكبير .وكنا كذلك في سورية نواجه الفرنسيين في ميسلون وكذلك قاومت العراق وقاومت فلسطين وليبيا وتونس والجزائر ومراكش في معارك متصلة دائمة. وقد كان شهر يونية حافلا بهذه الثورات ومن أبرز هذه المواقف الحاسمة معركة « ميسلون » على ربى دمشق في ٢٤ من يونية ١٩٢٠ .

ذلك أن سورية كانت منذ وقت بعيد موئل الحركة العربية ومقر العاملين في سبيل الحيلولة دون سحق القومية العربية بعد أن اتجهت تركيا العثمانية الى سحق القوميات الموجودة داخل الامبراطورية وتحويلها الى تيار القومية الطورانية واحياء أمجاد جنكيز خان وتيمورلنك فقد بدأت الدعوة الى «تتريك» العناصر وتحويل الكتابة والقوانين والأحكام والتعليم في المدارس من اللغة العربية الى اللغة التركية .

ثم كانت الثورة العربية الكبرى التي أعلنت صدى لهذه المقاومة وكان لسورية النصيب الأوفى فيها فقد قدمت أبناءها وشبابها .

وقد اتخذ الأتراك خطة مضادة فأرسلوا الى دمشق القائد التركي أحمد جمال الدين الذي أطلق عليه بعد « لقب السفاح » لمقاومة هذا التيار فعلق أحرار العرب على المشانق وحاول تحطيم الجبهة الوطنية المؤمنة بالقومية العربية . غير أن الذين استشهدوا كانوا يتعانقون فوق المقصلة ويرددون

عبارات الايمان بالعرب وبوحدة العرب وبأمة العرب • ولذلك ظلت دماؤهم نورا بين يدى المجاهدين ونارا تملأ قلوب العاملين •

وكان أن اتجه العرب الى الثورة ومقاومة العثمانيين واجلائهم من الحجاز وفلسطين وسورية بعد أن عاهدت بريطانيا العرب فى محادثات رسمية على تحقيق قيام دولة عربية متحدة • غير أن بريطانيا ما كادت تنتصر فى الحرب حتى حطمت عهودها وضربت بها عرض الأفق وكانت قد وقعت بالاشتراك مع حلفائها معاهدة سرية تقضى بتقسيم هذه المنطقة التى حررها العرب من الأتراك بكفاحهم وشهدائهم • تقسيمها بين فرنسا وبريطانيا ، وقد نصت معاهدة سايكس-بيكو على أن تحتل فرنسا ساحل الشام (سورية ولبنان) وأن تستولى بريطانيا على العراق وفلسطين • كما أعلن فى نفس الوقت تصريح بلفور الذى يقضى بتمكين اليهود من اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين • وأحس العرب فى هذه اللحظات الحاسمة بالغدر الذى أوقعه بهم البريطانيون والفرنسيون حين دفعوهم الى حرب الأتراك وقدموهم وقودا لها ووضعوا منطقتهم الضخمة الغنية فى خدمة أغراضهم طوال الحرب العالمية • وكان الجزاء هو سحق هذه الروح الوطنية بالاحتلال وتمكين اليهود من أرض العرب •

وحاول العرب أن يعملوا شيئا • فأقاموا حكومة عربية فى دمشق وواصلوا السعى فى مؤتمر الصلح للاعتراف بحقهم • غير أن فرنسا لم تلبث أن نفذت معاهدة سايكس-بيكو • ووجه الجنرال غورو انذاره الى حكومة دمشق وأعقب الانذار زحف الجيش الفرنسى على دمشق •

وفى هذا الموقف المفاجىء الرهيب • وقف قائد الجيش السورى « يوسف العظمة » ورفض أن يقبل دخول الفرنسيين بلاده وهو حى • وبدأ يجمع كتائبه ورجاله والمتطوعين والشباب واندفع بهم الى ربى ميسلون ليقاوم الزحف الفرنسى الغادر مؤمنا بأنه يجب أن يموت دون أن يرى العدو وهو يدنس أرض بلاده • وكانت ليوسف العظمة فتاة صغيرة أودعها لدى صديقه ساطع الحصرى وقال له : هى أمانة عندكم فارعوها ، واندفع الى المعركة مصمما على الموت حتى انه عندما جرح وحاولوا تضميد جروحه رفض ومضى يقاتل فى عنف وآثر أن يغمض عينيه وتدوسه سنابك الخيل على أن يشاهد غورو وقد احتل دمشق وأقام فيها حكم فرنسا •

ولكن معركة ميسلون لم تنته عند هذا الحد فقد كانت دماؤها تؤرق الأحرار وتدفع المجاهدين الى مقاومة باسلة مستمرة للفرنسيين طوال احتلالهم دمشق ويوم تحقق الجلاء عن سورية ذهب الناس الى قبر يوسف العظمة وشهداء ميسلون يضعون طاقات الزهور وينادون المجاهدين من وراء القبور قائلين ان سورية تحررت ٠

وفى ٢٦ من يونية ١٨٧٩ قاومت مصر أيضا زحفا استعماريا آخر هو زحف بريطانيا على مصر لاحتلالها ٠ قاومته بقيادة (عرابى) فى كفر الدوار وفى التل الكبير ٠ وهزم عرابى قوات بريطانيا فى كفر الدوار وأخر تقدمها ثلاثة أسابيع ولولا الغدر لما أمكن هزيمة مصر واحتلالها فقد لجأ البريطانيون الى الخداع والرشوة وشراء أنصار الخديو الذين أعانوا الجيش البريطانى على تعرف المواقع ، كما عبروا قناة السويس وخرقوا القانون الدولى ٠ وكان عرابى قد صمم على ردم القناة لولا أن أقنعه « دلسبس » بأن البريطانيين لن يعبروا القناة كما كان لخيانة الخديو وانضمامه الى بريطانيا أثر فى هذه الهزيمة مما عجل بمهاجمة معسكر العرابيين فى كفر الدوار وتعرف مواقعهم ٠

ولقد وقف عرابى فى وجه الخديو موقفا مشرفا ما يزال التاريخ يحفظه له كعنوان على أول معركة لمقاومة طغيان أسرة محمد على ٠ كما وقف فى وجه بريطانيا ولم ينهزم الا بسبب الخديعة والغدر ٠

وفى جزء آخر من الوطن العربى الكبير (فى ٣٠ من يونية ١٩٢٠) اندلعت الثورة العراقية الباسلة التى هزت بريطانيا وكبدتها خسارة كبيرة فى المال والرجال فقد كانت بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى تهدف الى جعل العراق مستعمرة بريطانية تابعة للهند ٠ غير أن الثورة الضخمة التى اندلعت دفعت بريطانيا الى تعديل موقفها ٠ ومنح البلاد حقها الشرعى فى الاستقلال ٠ واقامة حكومة دستورية وبرلمان ٠

وقد ظل العراق يقاوم الاستعمار البريطانى وما زال يقاومه فى قوة واستبسال ويقاوم الى جواره خيانة أنصار الاستعمار وأبطال حلف بغداد وقد توالت ثورات العراق بعد ذلك وكان أبرزها ثورة رشيد الكيلانى سنة ١٩٤١ ٠

الحماية

٢٧ من ديسمبر ١٨٨٢

سنحتفل فى ديسمبر بعيد النصر (٢٣ من ديسمبر) فلنعد الى الوراء قليلا حيث يجمع شهر ديسمبر بين حادثين يرتبطان بالاحتلال البريطانى الذى ترك فى حياتنا خلال بضعة وسبعين عاما أحداثا مريرة قاسية ، تستحق منا أن نستعيدها ونستذكرها فى مناسباتها حتى نعود الى اليقظة ، ونعلم مدى الحرية التى حققتها لنا الثورة بقيادة رائد العرب جمال عبد الناصر حين استطاعت أن تحرر بلادنا من هذا القيد الغليظ ، فحق علينا أن نظل دائما على الذكرى ، حتى لا ينسينا مرور الأيام هذا الخطر الذى ما زال جاثما على بعض أجزاء الوطن العربى يقاتل فى سبيل وجوده ، والذى يتآمر حتى ينقض مرة أخرى على وطننا الكبير ، وهو لن يستطيع ما دمنا محصنين باليقظة لا ننسى ولا نغفل ٠

انهما حادثان يتعانقان فى شهر ديسمبر وبينهما نيف وثلاثون عاما : هما نفى عرابى واعلان الحماية ٠

(١) ففى ٢٧ من ديسمبر ١٨٨٢ أبحرت الباخرة مريوط من ميناء السويس تقل أحمد عرابى وزملاءه الى المنفى بعد أن حكم عليهم بالاعدام ثم خفف الحكم الى النفى المؤبد حيث بلغوا ثغر كولومبو بجزيرة سيلان ٠ وكان زملاء عرابى هم القادة : على فهمى ، ويعقوب سامى ، ومحمود فهمى ، ومحمود سامى ، وعبد العال حلمى ، وطلبه عصمت ٠

وكان عرابى قد هزم بفعل الخيانة ، وسجل ذلك فى مذكراته فقال :

« وأسباب هذا الخذلان انه فى خلال تلك الأيام كانت الرسائل تترى من قبل الخديو الى الضباط بالوعد والوعيد معلنة لهم أن الجيش الانجليزى لم يحضر الى مصر الا بأمر السلطان خدمة للخديو وتأييدا لسلطته ٠٠ وكانت تلك الرسائل توزع بواسطة محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب ٠٠ الى

أن كانت ليلة الأربعاء ١٣ من سبتمبر ١٨٨٢ فأشاع علي بك يوسف انه علم من الجواسيس أن الانجليز لن يخرجوا فى هذه الليلة من مراكزهم ولذلك لم يفعل ما أمره به علي باشا الروبى من عمل خط الاستحكام من الحجارة وجمع عساكره فى نقطة واحدة • وكانت العساكر الانجليزية قد سارت من أول الليل وفى مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين انحازوا الى الخديو مع الانجليز وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم الى الطريق واستمروا سائرين الى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل •

ولما علم الخديو توفيق نبأ استيلاء الانجليز على التل الكبير وفد عليه من كان فى الاسكندرية من الذوات والأجانب يهنئونه بالفوز والنصر ، وصدحت الموسيقى الخديوية بأنغام التبشير بالظفر ، وعزفت السلام الخديو أمام سراى الحقانية فرفعت العساكر الانجليزية السلاح تعظيما واجلالا وهتف الأوربيون بقولهم « فليحى توفيق الأول » ثم ختم ذلك بالدعاء للخديو « وملكة الانجليز والجنرال ولسلى والدولة الانجليزية » •

وبعد هزيمة التل الكبير سبقت قوات الاحتلال الى القاهرة فلما بلغها عرابى ظهر ١٣ من سبتمبر ١٨٨٢ وجد انه لا فائدة من الحرب قال « فلما شاهدنا كل ذلك رأينا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الخراب والدمار كما حصل فى الاسكندرية ما دامت المقاومة لا تجدى نفعا وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الأمة المصرية • ثم قلنا ان الانجليز يحاربوننا الآن باسم الخديو لانحيازه اليهم ففى امكانه وقف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها » •

ثم قدم عرابى للمحاكمة حيث بدأ التحقيق معه فى ٢٨ من سبتمبر ١٨٨٢ فلما انتهى التحقيق والدفاع صدر الحكم باعدامه ثم استبدل بالنفى المؤبد •

(٢) ولقد كانت هزيمة عرابى بالخيانة بدء صفحة جديدة فى تاريخ مصر ، فقد احتلت بريطانيا مصر ومضت تشق طريقها للسيطرة الكاملة عليها مع خداع العناوين بالتصريحات المزيفة عن الجلاء ، ففى نفس الوقت الذى كانت تتحدث فيه عن الاقامة المؤقتة لحماية عرش الخديو كانت تقيم قاعدة الاقطاع الضخمة باقطاع زعماء البلاد الموالين لها الابعاديات لتجعلهم رؤوسا وتجعل الشعب كله من بعدهم عبيدا لها وخدما ، وبذلك تسيطر سيطرة كاملة على المجتمع بعد أن سيطرت على الدولة • ولم تلبث أن اتخذت من دخول تركيا الحرب ضدها ذريعة فأعلنت الحماية على مصر ووضعت الموانى والأراضى تحت تصرفها وذلك بمنشور صدر فى ١٨ من ديسمبر ١٩١٤ جاء فيه :

« يعلن ناظر الخارجية لدى حكومة (انجلترا) انه بالنظر الى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية الانجليزية • وبذلك قد زالت سيادة تركيا عن مصر • وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها •• » ولم تلبث أن عزلت الخديو عباس و « عينت » بدلا منه السلطان حسين ، وقالت فى تبليغ تعيينه « انها أخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر المصرى فى الحرب الحاضرة • وقد أصبح من الضرورى الآن وضع شكل للحكومة التى ستحكم البلاد بعد تحريرها من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التى كانت تدعيها الحكومة العثمانية • فحكومة جلالة الملك (البريطانية !) تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصرى جميع الحقوق التى آلت اليها بالصيغة المذكورة ، وكذلك جميع الحقوق التى استعملتها البلاد •

ولكن بريطانيا التى اعتبرت أن حقوق الشعب فى مصر وديعة عندها لم تلبث بعد انتهاء الحرب أن تنكرت لهذه الوديعة ولم تردها ، ورشقت صدور الشباب الذى قام يطالب بهذه الحقوق بالرصاص المسمم فى ثورة ١٩١٩ • وفى ثورات ومعارك متوالية من بعد ذلك حتى جاء جمال عبد الناصر فحول الأحلام الى حقائق ، وانتزع هذه الحقوق انتزاعا من بريطانيا ، وفرض عليها أن تنسحب وذلك بعد أكثر من سبعين عاما من الخداع والتضليل والتمويه • ولم تلبث بريطانيا أن عادت مرة أخرى وكأنما كان ضروريا أن تخرج منهزمة فى معركة فاشلة بالحرب والسلاح والشهداء ومن ثم كان يوم النصر الذى نحتفل به هذا الشهر (٢٣ من ديسمبر) يمثل صورة صادقة لجهاد المجاهدين ولقوة بأس الثورة المصرية العربية التى حققت هذا النصر وكتبت للجمهورية العربية المتحدة صفحة جديدة رائعة •

أحلام بريطانيا التى أغرقها النيل

٧ من يناير ١٨٨٤

فى يوم ٧ من يناير ١٨٨٤ أعلنت مصر بلسان «محمد شريف» الكلمة الخالدة التى تصور الرابطة الباقية الخالدة بين مصر والسودان : هـذه الرابطة التى فشلت كل القوى والمؤامرات أن تقطعها أو تحطمها .

ويحمل شهر يناير فى تاريخ السودان أحداثا مختلفة « اتفاقية السودان الباطلة ١٩ من يناير ١٨٩٩ » وأول يناير ١٩٥٦ « جلاء القوات البريطانية عن السودان واعلان السودان جمهورية مستقلة » .

وقد قامت الروابط الطبيعية بين مصر والسودان منذ ملايين السنين ، وقد تدخلت مؤامرات الاستعمار لمحاولة تحطيمها بعد الاحتـــلال البريطانى لمصر وامتدت تلك المؤامرات حتى ١٨ من نوفمبر ١٩٥٨ عندما أعلن الفريق ابراهيم عبود انهاء الجفوة المفتعلة بين مصر والسودان .

وكان ذلك أول تصريح لقائد ثورة السودان « البيضاء » التى حطمت آخر آثار الاستعمار وقضت على عملائه ومؤامراته . وقد كان الاستعمار حريصا على أن يحقق الفرقة بين مصر والســـودان حتى يصل الى أطمـاعه فى اقامة امبراطورية له فى قلب افريقيا .

يقول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا ـ سنة ١٨٧٧ ـ قبل احتلال مصر بخمس سنوات :

« اذا نزلنا مصر وذهبنا منها الى الســـودان مددنا أيدينــــا من فوق خط الاستواء الى جنوب افريقيا وأتممنا بذلك تأليف امبراطوريتنا الافريقية » .

وهكذا انتهزت بريطانيا أول فرصـــة لعزل مصر عن السودان وتصـفية صلاتها به فاستقال محمد شريف رئيس وزراء مصر ـ اذ ذاك ـ احتجاجا على تدخل الانجليز فى شئون مصر والسودان واعتدائهم على هذه الرابطة الخالدة .

ومضى الانجليز فى خطتهم المرسومة منذ عهد بعيد الى اقامة هوة واسعة بين سكان حوض النيل عملا على تجزئة هذا الحوض موقنين بأن أى تعـاون بين أجزاء هذا الوادى سيكون له بالغ الأثر فى تقويض نفوذهم الاستعمارى فى افريقيا ٠

وكانت مناورة « الاخلاء والعودة » مناورة استعمارية ماكرة أريد تصوير المصريين فيها بصورة المستعمرين والمحتلين ثم وقعت الاتفـاقية سنة ١٨٩٩ سرا بين بطرس غالى وزير خارجية وزارة مصطفى فهمى وبين كرومر ممثـل بريطانيا فى مصر ولم يعلم بها الوزراء الا بعد توقيعها ٠

وبهذه الاتفاقية جعل الانجليز لهم الحق - كل الحق - فى ادارة السودان ورفع العلم الانجليزى وتعيين حاكم السودان على أن يكون بريطانيا تختـاره بريطانيا وتبصم مصر على تعيينه ٠

وفى خلال فترة اخلاء السودان عمدت بريطانيا الى فصل أجزاء كثيرة منه ٠ فصلت سواكن وبربرة وزيلع وأعطت منطقة « هرهر » للحبشـة ومصـوع لايطاليا وتاجورة لفرنسا ٠

ولم تلبث بريطانيا أن أجلت مصر نهائيا عن السـودان وأتمت عمليـة الفصل عام ١٩٢٤ على اثر الحادث المفتعل « حادث السردار » ومنذ ذلك الوقت أخذ الانجليز ينفذون خططهم فى حرية مطلقة يملأون الصدور بالأحقـاد ٠ ويجرون محاولات ضخمة للفصل بين مصر والسودان وفى نفس الوقت عمدت بريطانيا الى تحويل الاتجاه الثقافى السودانى الى الثقـافة الانجليزية ومحو اللغة العربية ٠

وكانت بريطانيا تعمل متآمرة فى ميدانين فى وقت واحد ٠

فصل السودان عن مصر ٠ وفصل شمال السودان عن جنوبه ٠ وقد بلغت فى ذلك غاية ما استطاعت فى خلال بضعة وستين عاما (١٨٨٩-١٩٥٢) ٠

وتبلغ مساحة الجزء الذى عزلته من السودان وأطلق عليه اسم « المناطق المقفلة » ثلثى مساحة السودان وهناك وجدت مرتعا خصيبا لاثارة الأحقـاد بين الشمال والجنوب كما أطلقت البعثـات التبشيرية لمنع انتشار اللغـة العربية ٠

وكانت تنفق فى ذلك ٤٨٠ ألف جنيه سنويا — كما عمدت الى بذر بذور الفتنة بين الوطنيين والقبائل السودانية بمحاولتهم اثارة العوامل العنصرية والدينية • ومنعوا دخول أهالى شمال السودان الى الجنوب وعندما عقدت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا أكدت نصوص اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة واعتبرت المصريين فى السودان كالأجانب يمنعون من الامتلاك والمتاجرة والهجرة وكانت معاهدة ١٨٩٩ خالية من هذه القيود وذلك لتأكيد اقامة حائط فولاذى بين مصر والسودان •

وشطبت بريطانيا فى السودان الأسماء السودانية والمصرية القديمة وأدخلت بدلا منها أسماء غردون ، واستاك ، وكتشنر ، والسردار ، وسلاطين وفيكتوريا •

وأقام كتشنر سكة حديد ضيقة مخالفا بذلك الطراز المستعمل فى مصر حتى لا يتم الاتصال كما عمد الى ايقاف مد هذا الخط الحديدى بين الشلال وحلفا تأكيدا لذلك الفصل وقطعا للاتصال بين مصر والسودان •

ومضت بريطانيا فى الدعايات المضللة عن اللون والدم والأجناس والأقطار والحواجز وكانت مهمة « غردون » الظاهرة هى القضاء على الرقيق ، ولكن مهمته الحقيقية كانت هى نشر الفوضى والخلل فى السودان والقضاء على الوحدة بين شطرى الوادى ، وباسم تطهير جنوب السودان من الرقيق نكل « غردون » « بالجلابة » وآلهم وذويهم • ومضى يقضى عليهم بالاعدام ومصادرة الأموال واستصفاء أملاكهم لأنهم هم طائفة التجار الذين كانوا يذيعون اللغة العربية فى كل مكان يحلون فيه وكانت حركاتهم رمزا على التجمع والوحدة •

كما عمدت بريطانيا الى انشاء شبكة طرق تصل جنوب السودان بقلب افريقيا فى حين انهم لم ينشئوا طريقا واحدا يصل بين جنوب السودان وشماله •

ولكن هل أثرت هذه المؤامرات الضخمة فى القضاء على الروابط التاريخية بين مصر والسودان : روابط وادى النيل وروابط الدم وروابط القومية العربية وروابط النيل • ان هذا العمل الذى قام به الاستعمار خلال ستين عاما قد أثبت فشله الحقيقى باعلان ثورة السودان فى ١٨ من نوفمبر ١٩٥٨ حين كشفت عن حقيقة معدن السودان وقوة جيشه وايمانه بالعروبة والترابط •

لم يتوقفوا عن الثورة ولم يقبلوا الاحتـــلال يوما وقاوموه بكل وسيلة وثاروا أكثر من مرة : ثاروا عام ١٩٠٨ ثورتين مســـلحتين • وكانت ثورة الجيش السودانى عام ١٩٢٤ بقيادة البطل الشهيد على عبد اللطيف هى نواة حركة اليقظة التحريرية • لقد جاءت فى عقب اجراءات بريطانيا لفصل الشمال عن الجنوب وارســـال وفد الولاء الى لندن وفضح الجيش الســـودانى مؤامرة العرائض التى كتبت لتأييد بريطانيا وكشف عن حقيقة الاكراه الذى أرغم به الناس على توقيعها •

ولم تجد أبدا كل وسائل الاستعمار فى بث روح الكراهية وبقيت العواطف بين الشعب فى مصر والسودان قوية متحدة تظهر كلما أحدقت الكوارث ، أو جاء وقت الامتحان • ومن أبرز هذه المناسبات العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ـ وقد كانت ثورة مصر فى ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ اشراقة فجر جـــديد فى الروابط المصرية السودانية بعد أن تحطم قيد الاحتلال والقصر والأحزاب فى مصر • فعملت مصر على انهاء الحكم الثنائى على السودان وجرت مفاوضات فى هذا الشأن بين مصر وبريطانيا انتهت باتفاقية وقعت فى ١٢ من فبراير ١٩٥٣ تقضى بقيام فترة انتقال لمدة ثلاث ســـنوات تنتهى فى ينـــاير ١٩٥٦ حيث أعلن استقلال السودان وتم جلاء القوات البريطانية عنه وكان أن تحقق الجلاء عن السودان قبل مصر وقامت الجمهورية السودانية •

واليوم وقد تحقق بقيام الثورة السودانية عودة الأمور الى طبيعتها الحقيقية بعد أن تخلص السودان نهائيا من الاستعمار البريطانى ومن عملائه فاننـــا نتطلع الى خطوات جـــديدة فى سبيل دعم القومية العربيـــة ودعم الروابط التاريخية والنيلية على أساس الثقة والحب والوحدة •

سجـــن محـــمد فـــريــد

فى ٢٣ من يناير سنة ١٩١١

لعله مما لا يحدث كثيرا أن تبرق فتـــاة لوالدها تدعوه للحضور ليحـاكم ويسجن . ولكن هذا حدث فعلا عندما أبرقت « فريدة » الى والدها « محمـد فريد » الذى كان يدعو للقضية المصرية فى أوربا أن يعود وممـــا قالته فى خطابها التاريخى : « لنفرض انهم يحكمـــون عليك بمثل ما حـكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش فذلك أشرف من أن يقـــال بأنكم هربتم . وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم وأختم خطابى بالتوسل اليكم باسم الوطنية والحرية التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن » .

ولم يكد « محمد فريد » يصـــل فى أواخر ديسمبر ١٩١٠ حتى بدأت النيابة التحقيق معه فى مقال كتبه عن « تأثير الشـعر فى تربية الأمم » قدم به لديوان « وطنيتى » الذى نظمه الشيخ على الغاياتى وصـــدر فى أغسطس ١٩١٠ ومحمد فريد متغيب فى أوربا . وقد تولى التحقيق معه « محمد توفيق نسيم » وأقيمت الدعوى عليه فى ٤ من يناير ١٩١١ بتهمة « تحسين كتـاب وطنيتى » بأن كتب له مقدمة . ونظرت القضية أمام محكمة جنايات مصر فى ٢٣ من ينـــاير ١٩١١ التى انعقـــدت برئاسة المستر دلبروجلى وحضر فريد المحاكمة غير مصطحب أحدا من المحامين . وترافع نسيم مرافعـــة استغرقت خمسا وثلاثين دقيقة مسرفا فى توجيه الاتهام ثم صدر الحكم بحبس محمـــد فريد ستة أشهر مع النفاذ وتلقى « فريد » الحكم بالثبات والابتســام وطلب وهو فى طريقه الى سجن الاستئناف بباب الخلق بعض الكتب . وكان الهدف الحقيقى من محاكمة فريد القضـــاء على الحركة الوطنية وترويع أنصـــاره والعاملين معه ووجه اللوم اذ ذاك الى وزير الحقانية « سعد زغلول » على انه أمر بهذه المحاكمة ارضاء للاحتلال .

وفى السجن أوفدوا الى محمد فريد من يساومه : ذهب اليه مدير مصلحة السجون الانجليزى وجرى بينهما حديث :

ـ انى أسعى للعفو عنك اذا وعدت بتغيير خطتك .

ـ ان ما تطلبه مستحيل .

ـ انى لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك .

ـ أرفض .

ـ اذن فأنت تريد قضاء الستة شهور فى السجن •
ـ نعم وأزيد عليها يوما اذا أردتم •

ومضى السجان الانجليزى وهو يحس احساسا أكيدا بأنه لا سبيل الى مساومة محمد فريد ولكن زيارة أخرى فاجأت محمد فريد : تلك هى زيارة الدكتور عثمان غالب موفدا من قبل الخديو ليعرض عليه من جديد مسألة العفو وجرى بينهما حديث قصير •

ـ ان الخديو مستعد للعفو عنك اذا قدمت طلبا بذلك •

ووجه فريد اللوم الى غالب وقال له :

ـ أنا لا أطلب العفو ولا أسمح لأحد من عائلتى بطلبه عنى واذا صدر عنى عفو فاننى لن أقبله •

وأرسل فريد من يطلب الى الصحف أن تكف عن الحديث عن العفو عنه •

وأمضى فريد شهوره الستة يقرأ القرآن ويطالع الكتب ويتعلم اللغة الألمانية •

وعندما أفرج عنه فى ١٨ من يوليو ١٩١١ نقل فى عربة مقفلة الى منزله فى شبرا ولكن الجماهير كانت قد باتت طوال الليل فى ميدان باب الخلق تنتظره حتى الساعات المبكرة من الصباح • وفى نفس اليوم صدر اللواء يحمل صيحة جديدة « من سجن الى سجن » •

« مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ولم أشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب أجل خروجى • لعلمى اننى خارج الى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية ، الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال • حقيقة لم أشعر بأى انشراح عند حلول أجل مفارقتى لهذه الغرفة الضيقة التى قضيت فيها ستة أشهر قمرية أى مائة وستا وسبعين ليلة كاملة لعلمى انى خارج الى سجن أضيق ومعاملة أشد اذ أصبح مهددا بقانون المطبوعات ومحكمة الجنايات محروما من الضمانات التى منحها القانون العام للقتلة وقطاع الطرق فلا أثق أنى أعود لعائلتى ان صدر منى ما يؤلم الحكومة من الانتقاد •

بل ربما أوخذ من محل عملى الى النيابة فالسجن الاحتياطى فمحكمة الجنايات الى السجن النهائى وستبقى حالتنا كذلك حتى نسترد الدستور وتفى انجلترا بوعودها المتكررة فتجلو عن بلادنا • ان هذا الحبس لا شىء فى جانب حبى لمصر • أمى العزيزة ، فيذهب عنى الضجر وتزداد عزيمتى اشتدادا » •

واليوم وقد طلع الفجر ، نحيى ذكرى محمد فريد الذى سجن من أجل الحرية والجلاء ••

شهداء الثورة العربية

٥ من مايو ١٩١٦

هذا يوم خالد من أيام الأمة العربية · الدم الذى أريق فيه أثمر بعد أربعين عاما هذا الحدث الضخم الذى يقع اليوم عندما يتجمع العرب فى وحدة شاملة ويتنادون الى ايجاد قوة متحدة تواجه الاستعمار والصهيونية والاستبداد ·

هؤلاء الواحد والعشرون من المجاهدين العرب الذين قتلهم جمال الدين السفاح فى ساحة الشهداء بدمشق فى هذا اليوم · ظلت أرواحهم ماثلة فى جو الأمة العربية لا تبرح · وأشباحهم قائمة أمام الأبصار لا تغيب · تدفع المجاهدين الى البذل والكفاح فى سبيل الحرية والوحدة ·

كانت « دمشق » مركز الحركة العربية عندما صحت نية العرب على التخلص من العثمانيين الذين دفعهم الطغيان الى تتريك العناصر وتحطيم الروح العربية واذابتها فى الامبراطورية الشاسعة وفق مذهبهم الذى أطلقوا عليه اسم الجامعة الطورانية · وهى العودة بالتاريخ القهقرى الى أمجاد جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك ·

وكان أحرار العرب قد عقدوا المؤتمر العربى الأول فى باريس عام ١٩١٣ واتخذوا فيه قرارات خطيرة كان من أبرزها ضمان تمتع العرب بحقوقهم السياسية « وذلك بأن يشتركوا فى الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا وأن تنشأ فى كل ولاية عربية ادارة مركزية تنظر فى حاجاتها · واللغة العربية يجب أن تكون معتبرة فى مجلس النواب العثمانى · ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية · فاذا لم تنفذ هذه القرارات فالأعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أى منصب فى الحكومة العثمانية · وان هذه القرارات ستكون برنامجا سياسيا للعرب » ·

كانت هذه القرارات هى الضوء الكاشف للحركة العربية السرية التى تقوم عليها جمعية العربية الفتاة · وكان أبرز أعضاء هذا المؤتمر هم : عبد الحميد الزهراوى ، شكرى غانم ، سليم على سلام ، اسكندر عمون ، أحمد طباره ، ندره مطران ، عبد الغنى العريس ، محمد محمصانى ، عونى عبد الهادى ، جميل مردم ، شارل دباس ·

وكانت دمشق على أثر هذا المؤتمر تغلي كالمرجل تتحين الفرصة لتجاهر بارادتها الاستقلالية · وأعلنت الحرب العالمية عام ١٩١٤ ودخلتها تركيا فى صف ألمانيا وفى نفس الوقت بدأت عملا ارهابيا يقوم على أساس اقصاء الضباط العرب عن الاستانة والولايات العربية وقتل الحركة الاصلاحية وشراء بعض الخونة ·

ووصل أحمد جمال باشا الى دمشق حاكما · حاول فى أول أمره أن يتودد الى العرب ففشل · فاتجه الى العنف والارهاب · وصبغ الأرض بالدماء وأعدم الزعماء ذوى الرأى والنفوذ · وجوع السكان · وسفك دماء الأبرياء · وخلق جوا رهيبا من المؤامرات والجواسيس ·

ولم يلبث أن أقام محاكم صورية فى دمشق وبيروت تقضى بالاعدام على كل من يقدم اليها قاصدا بذلك ضرب الحركة العربية فى صميمها · ولكن سورية العربية القوية الشكيمة صمدت لهذه المحاكمات التى استمرت وتعددت وسجلت صورا من البطولة بالغة العجب لايمان أبطالها بالقومية العربية ·

فقد كان الأبطال يتعانقون وهم على حافة المقصلة ويعلنون انهم انما يموتون فى سبيل حياة الأمة العربية ·

كان هؤلاء الذين رويت ساحة الشهداء فى دمشق بدمائهم هم : عبد الحميد الزهراوى ، أحمد طباره ، عبد الغنى العريس ، محمد محمصانى ، عبد الكريم الخليل ، عمر أحمد ، توفيق البساط ·

وقال الشهيد محمد المحمصانى عندما قدم للمشنقة :

« اننى أعلن أمام الله والناس أن المواطنين الذين سيعدمون أبرياء · وأنا وحدى المذنب · وذنبى — لو اعتبر هذا ذنبا — اننى أعشق الحرية وأنشد تحرير وطنى · واننى أردت بكل قواى هذا التحرر ولا أندم بحال على مافعلت واننى سعيد باعتبارى أول الضحايا · وانه من المحتم علينا أن نثور نحن العرب أبناء أعظم مدنيات العالم · كلما فكرنا فيما صرنا اليه من ذلة ساقتنا اليها قبائل الأناضول المتوحشة · ولقد ضقنا ذرعا بالظلم المزرى الذى يوقعه على رؤوسنا الأتراك · وان الفكرة التى سنواصل السعى لها ستعيش وستنتشر من بعدنا » ·

الشهداء الذين أناروا الطريق أمام القومية العربية الصـاعدة

٦ من مايو ١٩١٦

فى فجر اليقظة العربية : عندما كانت القلوب تنفتح على الحدث الجـديد « القومية العربية » بعد أن أذاق الاستبداد العثمانى العرب من قسوته وظلامته ما كاد أن يمزق وحدتهم ويقضى على لغتهم ويحـولهم الى جزء من القـومية العثمانية ويخضـعهم لمؤامرة التتريك التى قام بها الاتحاديون بعـد عزل عبد الحميد طاغية العثمانيين الأكبر .

فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الأمة العربية . كانت سـورية هى بؤرة القـومية العربية وكان رجالها قد تجمعـوا فى مؤتمر باريس ١٩١٣ ليقولوا كلمتهم فى قوة وثقة : نطالب بالمركزية وبكيان صحيح للعرب .

كان هناك عبد الحميد الزهراوى وشكرى غانم وجميل مردم وشارل دباس وأحمد طباره وندره مطران وعبد الغنى العريس ومحمد محمصانى .

وكانت هذه جريمتهم فى نظر العثمانيين الذين أوفدوا الى سوريا حاكمـا طاغية هو القائد أحمد جمال باشا قائد اللواء الرابع من الجيش العثمـانى وحاكم سورية ليقضى على هذه الفئة المؤمنة بحقها والواقفة كالسد المنيع دون محاولة الاتحاديين الاجرامية فى القضاء على الكيان العربى ودمجه فى الكيان العثمانى العام .

ومنذ اليوم الأول لوصول أحمد جمـال باشا الى دمشق وقد أعد خطـة متآمرة ففى نفس الوقت الذى كان يخطب فيه داعيا الى الوحـدة بين العرب والترك كان يفرق كتائب الضباط العرب ويرسل شبابها الى ميادين القتال فى الدردنيل والقوقاز والأماكن النائية ليوضعوا فى خط النار .

وظل الأمر كذلك حتى فوجىء الناس فى أواخر يونيه ١٩١٥ باعتقال عدد من أقطاب العرب حيث قدموا لتحقيق سرى دار فى « عاليه » أمام ما أطلق عليه « المجلس العسكرى » وفجـأة وفى ٢٦ من أغسطس ١٩١٥ علق على أعواد المشانق فى بيروت دفعة كبيرة من هؤلاء الأحرار أمثال عبد الكريم الخليـل

وصالح حيدر ومســـلم عابدين ونايف تللو ومحمد المحمصانى ومحمـــود المحمصانى وعبد القادر الخرسا ومحمود العجمى وسليم عبد الهادى ونورالدين القاضى وعلى الارمنـــازى ٠ وقد اعتبر كـــل منهم عاملا خطرا ضــد الدولة العثمانية ٠

وفى ٦ من مايو ١٩١٦ نفذ حكم الاعدام فى دفعة أخرى تتكون من : بنزو باولى وتوفيق البساط وعمر حمد ورشدى الشمعة وعبد الحميــد الزهراوى وشكرى العسلى وشفيق المؤيد العظم وأحمد طباره وعبد الغنى العريس وعمر عبد القادر الجزائرى ٠

وقد تميزت الدفعة الثانية بأن المشانق علقت فى ميدانى المرجه فى دمشق وساحة البرج فى بيروت فى وقت واحد ٠

وفى نفس الوقت ألقى حاكم دمشق القبض على أكثر من ٣٠٠ أسرة من أسر هؤلاء الشهداء من (سورية وفلسطين ولبنان) نســـاء ورجالا وأرسلوا الى الأناضول قبل صدور الاحكام على أهليهم ثم صودرت أملاكهم وأموالهم ٠ وقد وزعوا عـــلى مدن قونيه وأنقرة وديار بكر وبروســـه واطنه وسيواس وقد استهدفوا بهذا اضعاف العصبية العربية فى بلاد الشام ٠

وفى ٦ من مايو ١٩١٦ ذلك اليوم المشهود فى ساحتى دمشق وبيروت نقل الشهداء الى حيث نصبت المشانق فلما تقدم منها الشهداء الأبطال كانوا أقوى ما يكونون ايمانا بأنهم على الحق وكانوا يتلاقون على أعواد المشانق ويتعانقون ويعلنون صادق ثقتهم بأن ما قتلوا عليـــه سيكون هو الحقيقة الواقعـة وان دماءهم ستظل نورا يضىء الطريق للعاملين فى سبيل القومية العربية ٠

ومن أقوالهم قول عبد الكريم الخليل :

« أشهدكم أيها القوم اننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفتنا هذه وانى آسف على ما أظهرته للدولة من الاخلاص منذ نشوب الحرب ٠ ولكن الاتحاديين أبوا الا أن يعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذى لا يملك من أمره شيئا ٠ واذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثورة لاستقلال العرب فلابد من ضحايا لهـذا الاستقلال ٠ ولنكن نحن أول هذه الضحايا » ٠

وقال محمد المحمصانى :

« يشهد الله انى لم أخن وطنى دقيقة واحـــدة وان ما فعلته وقمت به من الحركات التى اتهمت بها انما كان عن اعتقاد ثابت لا يتزعزع بأنى أخـــــدم بلادى ٠٠ اننى أموت شهيدا ٠٠ فلتحى أمتى وليحى العرب » ٠

وقال عمر حمد :

« أموت فداء الأمة العربية ٠٠ فليسقط الأتراك الخونة وليحى العرب » ٠

وقال عبد الغنى العريس :

« ان الدولة لا تبنى على غير الجماجم وان جماجمنا ستكون أساس استقلال بلادنا » ٠

وقال أحمد طباره :

« مرحبا بأرجوحة الشرف ٠ مرحبا بأرجوحة الأبطال ٠ مرحبا بالعمد التى تستند اليها الأمم فى استقلالها ٠ مرحبا بالموت فى سبيل الوطن الحر » ٠

وهكذا كان الدم العربى الحر الذى سال يوم ٦ من مايو ١٩١٦ نبراســـا لحقيقة هائلة ضخمة عاش لها المجاهدون ومات فى ســـبيلها الأحرار هى أن القومية العربية قوة لا يمكن سحقها أو النيل منها وان كل محاولة لذلك باءت فى الماضى بالفشل وان كل محاولة جديدة ستتحطم على هذه الصخرة الصلبة٠ فليذكر ذلك دعاة الانفصال الآن فى سوريا ٠ فستظل الأمة العربية تقـــدم شهداءها ليضيئوا الطريق أمام القومية العربية الصاعدة حتى تصل الى مداها باذن الله فى ظل اللواء المرفوع بقيادة جمال عبد الناصر رائد العرب ومجـــدد انتفاضتهم ٠

فشلت الثورة العربية لأنها ارتبطت بالإنجليز

١٠ من يونية ١٩١٦

لعل من عوامل استكمال نجاحنا فى « ثورتنا العربية العظمى » أن نعاود النظر — فى مناسبة الذكرى — فى أحـداث الثورة العربيـة الأولى لنعرف العوامل التى أدت الى فشلها منذ أكثر من أربعين عاما وتأخر قيام الوحـدة الكبرى للأمة العربية الى أن قام جمال عبد الناصر يحمل علم القومية العربية على أسس متينة الدعائم قوامهـا الحياد الايجـابى والوقوف موقف النـد والمساواة لجميع الدول ، لا تنحرف الى الشرق ولا تنحاز الى الغرب مما كان له أكبر الأثر فى نجاح خطواتنا الثابتة نحو الهدف الكبير ٠

ولقد كان العرب فى أوائل هذا القرن يعيشون ضمن الامبراطورية العثمانية التى أكلتها السنون وأوشكت على الانهيار تحت اسم « الرجل المريض » ولقد كافحوا ظلم عبد الحميد واستبداده حتى تحقق لهم الظفر بالحرية بعد اعلان الدستور عام ١٩٠٨ وخلع عبد الحميد عام ١٩٠٩ ولكن الاتحـاديين الذين استولوا على زمام السلطة فى تركيا أرادوا أن يحققوا خطة أشـد استبدادا وهى قيام الجامعة الطورانية التى تمجد جنكيز خان وتيمورلنك وترفع اسم الأتراك فوق كل اسم ٠ مستهدفة اجراء عمليـة « تتريك » لكل العنـاصر الخاضعة للامبراطورية ٠ والغاء اللغة العربية من دواوين الحكومة والمحـاكم والمدارس والقضاء على القـومية العربية قضاء نهائيا ولـكن العرب الذين يؤمنون بكيانهم وشخصيتهم ، ويثقون بأن عواصف التـاريخ وأحداثه لم تستطع رغم عنفها وتواليها أن تمحوا ملامح شخصيتهم ٠٠ هؤلاء العـرب قاوموا هذا التيار الجديد أعنف مقـاومة ووقفوا أمام الخطر وقفـة دفاع ونضال ٠ بعد تعبئة القوى والتأهب للقتـال ، فتكونت الجمعيـات السرية العربية وكانت سورية هى بوتقة هذا النضال البطولى ومناره ، وفيهـا قامت الحركة العربية تذود عن الشخصية العربية أن تستذل أو تنمحى ٠

وأرسل العثمانيون حاكما ظالما الى دمشق هو « أحمد جمال الدين » الذى أطلق عليه بعد اسم « السفاح » فقام بدور ماكر خبيث ، اذ أعلن أمام الناس دعوة الاتحاد والتلاقى بين العـــرب والأتراك ٠ وقال ان العـــرب والأتراك لا يستطيعان أن ينفصلا وانه خير لهما أن يتعاونا ، وفى نفس الوقت بدأ فى الخفاء سياسة اجرامية تهدف الى تشتيت قوى العرب وابعـاد الشباب ثم لم يلبث أن كشف عن تآمره فعلق عددا من أعـــلام الوطنية العربية والـكفاح القومى على المشانق فى دمشق وبيروت فى وقت واحد ، وقد كتب الشـــهداء صفحة فخار بالنداءات والشعارات التى أعلنوها من فوق « أراجيح الأبطال » كما أطلقوا عليها ومضت المقاومة العربية قوية حتى أعلنت الحرب العـــالمية الأولى ودخل العثمانيون الحرب الى جانب ألمانيا ٠ وأجرت بريطانيا اتصالات متعددة بالجبهة العربية التى كانت قد اختارت الشريف حسـين شريف مكة زعيما لها ٠ وأكدت بريطانيا للعرب فى خطابات رسمية تعهداتها بأنها تمكن للعرب من قيام دولة لهم بعد الحرب اذا ما أيدوها ووقفوا فى صـــفها ضـد ألمانيا وحليفاتها ٠ وظن العرب أن الدول الكبرى صادقة حين تتعهد موفيـــة حين توقع الوثائق والعهود ولكن ما كادت الحرب العالمية تضع أوزارها حتى كشف البريطانيون عن الغدر ونكثوا بالعهد ، وقسموا المنطقة التى تعهـــدوا للعرب بأن يقيموا فيها دولتهم ، قسموها ثلاثة أقسام قسم لفرنسا وقســـم لبريطانيا وقسم لليهود ٠

وكانت هذه تجربة ضخمة للقومية العربية التى عرفت انها لا تستطيع أن تحقق النصر بالتعاون مع الاستعمار صاحب المطامع الكبرى فى المنطقة ،والذى يقيم خططه على أساس تمزيق هذه الوحدة ووضـــع الحدود والسدود بـين أجزائها المفتعلة ٠

وقد كانت هذه هى الخطة التى قام بها الاستعمار فى المنطقة بعـد الحرب العالمية الأولى فباعدت بين الأجزاء المرتبطة وحالت دون التقـــاء الأجزاء التى ظلت متحدة مئات السنين ٠

ويستطيع المراجع لوقائع الثورة العربيـــة أن يرى كيف أن اعتمـادها على الانجليز قد حال منذ اليـــوم الأول دون توسعها واندلاعها بالصـورة التى

تحقق هدفها ، فانه ما كاد يعلن عنها فى مكة حتى حاصرتها بريطانيا وقصرتها على الجزيرة وحالت دون توسعها أو وصولها الى غاياتها . وبذلك ضـــاعت الثورة فى ظل عوامل غريبة عجيبة كان قوامها أن فرضت بريطانيا على الثورة رجلا من مخابراتها هو « لورنس » الذى أطلق عليه فى يوم ما لقب ملك العرب غير المتوج . وقد حول لورنس تيار الثورة العربية لمصلحة بريطانيا . وبالرغم من أن العرب هم الذين حرروا شبه الجزيرة العربية وفلسطين وســـوريا من القوات التركية فان القوات الفرنسية والبريطانيـــة كانت تسابق القـــوات العربية لكى تعسكر فى المناطق التى حررها العرب . وسرعان ما وقف اللورد اللنبى فى فلسطين ليقول كلمته المتعصبة « اليوم انتهت الحروب الصليبية ».

وهكذا كان من أولى حقائق ثورتنا العربية العظمى بقيادة جمال عبد الناصر الحياد بين المعسكرات وعدم الاعتمـــاد على القوى غير قوة القومية العربيـــة نفسها والأمة العربية نفسها . وكانت ثورة العرب ١٩١٦ قد أعطتنا التجربة وعلمتنا كيف استطاع الاستعمار أن يخدع الأمة العربيـــة فى نفس الوقت الذى سلم فيه فلسطين قلب العـــالم العربى لليهود وقسم الأرض العربيـــة كأسلاب بين فرنسا وبريطانيا .

وعـــــد بلفـــور

٢ من نوفمبر ١٩١٧

هذا يوم حاسم فى تاريخ الأمة العربية • اذ وقع فيه عمل اجرامى خطـير كان بعيد الأثر فى حيـــاة الأمة العربية خلال أربعين عاما • عنـدما أعلنت بريطانيـــا فى خطاب الى زعيم يهودى بيع أرض فلسطين باسم تمكين اليهود من اقامة وطن قومى فى هـــذه المنطقة ، مما أدى بعد الى اخراج أهله منـه • وتمكين غيرهم بالقوة من الإستيلاء عليه •

وليس أدل على مدى خطورة الاجراء الذى أعلن فى هذا اليوم من أن وايزمان زعيم الصهيونية هو الذى كتب وثيقة وعد بلفور على النحو الذى أراده •وان كان قد أجرى فيه تغيير يسير • لم يقصـــد به الى حرمانه من بعض غايته • ولكن أريد به احكام خداع العرب • وهذا ما يقوله وايزمان فى مذكراته كمـا روى الرئيس جمال عبد الناصر فى كتابه : فلسفة الثورة : « ولقد حدث فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا أن وقف هرتزل يعلن ليهود ألمانيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحـــدها دون كل دول الأرض • قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل • منفصلة عن غيرها » •

واننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة •

وقرأ هرتزل خطـــابا من اللورد لاترسون نائبـا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى •

وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطنا قوميا •

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض •

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه فى المهد ودفناه دون ضجة •

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا •

وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا الى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر • الذى أظهر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى •

ولكن اللجنة لم تجد فى منطقـة سيناء ما يفى بالغرض الذى كنا من أجله نريد الوطن القومى ٠

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسـؤالى على الفور :

ـ لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟

وقلت لبلفور :

ـ ان الصهيونية حركة سياسية قومية ٠ هذا صحيح ٠ ولكن الجـانب الروحى منها لا يمكن اغفاله ٠ وأنا واثق تمام الثقة اننا اذا أغفلنا الجـانب الروحى فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى ٠

ثم قلت لبلفور :

ـ ماذا تقول لو أن أحدا قال لك ٠ خذ باريس بدلا من لندن ٠ هل تقبل ؟

وعدت الى لندن فى خريف سنة ١٩٢١ وكان الغرض من رجوعى اننى دعيت الى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين ٠

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها ٠

وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور ٠ وكان هوالمسئول عن وضع مشروع الوثيقة ٠

وكان معنا فى لندن القانونى الشهير « ابن كوهين » وهو من أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العـالم ٠ وكان ايريك فوريس أدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا ٠

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف ٠

كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيد بريطانيا فيهـا بوعد بلفور ٠ وبأن تكون خطتها فى فلسـطين قائمة على أساس الوطن القـومى لليهود ٠

وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » ٠

وقال كيرزون انه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتهـا وقال انه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين » .

ومنذ ذلك اليوم اتجهت كل القوى البريطانية الى تمكين اليهود من الاستيلاء على فلسطين . فاختير المندوب البريطانى الأول يهوديا . ونص فى صك الانتداب البريطانى على فلسطين على هذا المعنى . فنصت المادة الثانية منه : ان على عاتق الحكومة المنتدبة ثلاثة أمور : انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . ترقية الحكم الذاتى . ضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الجنس والمذهب .

أما المادة السادسة التى تنص على الهجرة ، فتلقى على عاتق الحكومة البريطانية ثلاثة واجبات : أن تسهل الهجرة اليهودية فى أحوال وشروط مناسبة . ومع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ومركز سائر طوائف الأهالى .

ومع أن صك الانتداب ينص صراحة فى جميع مواده هذه على انه لا يجوز الاستمرار فى انشاء الوطن القومى اذا كان ذلك الاستمرار يضر بمصالح الأهالى غير اليهود . وانه لا يجوز استمرار الهجرة اليهودية متى صارت مجحفة بحقوق ومركز سائر طوائف الأهالى .

ولكن الذى حدث بالضبط أن هذه الشروط لم تتحقق ، وانها كانت خدعة للعرب وتغطية لهدف ضخم هو تسليم هذه الأرض لليهود .

وقد واجه العرب حربا عنيفة واستعمارا بريطانيا ويهوديا مزدوجا ، وقد قاوموه مقاومة فعالة . دون أن يكون فى أيديهم من الأسلحة والوسائل ما يكفل لهم العمل الحاسم . ومع ذلك فقد قاوموا وقدموا شهداءهم وضحاياهم وأخروا أمل اليهود فى تحقيق قيام الوطن اليهودى عشر سنوات .

وفعلت المؤامرة فعلها . واستطاع الاستعمار أن يملى على ملوك العرب أن يوقفوا الثورة الفلسطينية الضخمة التى هزت بريطانيا .

وقد ذكر وايزمان أن مقاومة العرب بهذا العنف وهذه القوة لم تكن متوقعة وانها أخرت تقدمهم عشر سنوات .

وعندما يعود يوم ٢ نوفمبر من كل عام نذكر نحن العرب مؤامرة الاستعمار حين ارتبطت بمؤامرة الصهيونية فى سلب الأمة العربية هذه القطعة الغالية من أرض الوطن . والتى كانت حدثا ضخما فى تاريخهم كله . بعيد الأثر فى يقظتهم وتجمعهم للمقاومة . والعمل الحاسم لاسترداد هذه الأرض واعادة أهلها اليها .

خدعتنا مبادئ ولسون

٨ من يناير ١٩١٨

عندما أعلن ولسون رئيس الجمهورية الامريكية تصريحه عن اعطاء الشعوب الصغيرة حق تقرير المصير ، ظن العرب فى سوريا والحجاز ، والمصريون الذين اشتركوا فى الحرب العالمية الأولى وقدموا الضحايا والشهداء ، ان ما ورد فى هذا التصريح حقيقة واقعة .

قال ولسون فى تصريحه « انه لا يصح لأمة أن تكره أمة أخرى على اتباع سياستها وانما يجب أن يترك لكل شعب الحق وحده فى تقرير سياسته ورسم طريقه الذى يراه مؤديا الى التقدم بدون احراج أو تهديد أو ارهاب لا فرق فى ذلك بين شعب ضعيف وشعب قوى » .

وعندما ألقى رئيس الجمهورية الامريكية هذا التصريح أثار روحا من التفاؤل خدع به المصريين والعرب . واعتقدوا انهم واجدون من ورائه استجابة لحقوقهم وعونا على مطالبهم العادلة فى الحرية والاستقلال . وظنوا أن فجرا جديدا من الكرامة والحرية والعدالة يوشك أن يشرق على الدنيا . فتنتفى من أهداف الدول الكبرى معانى الاستعباد والاحتلال والسيطرة على الدول الصغيرة .

كان المصريون تحت ضغط الاتجاه السياسى الجديد بعد الثورة ــ هذا الاتجاه الذى يهدف الى الالتقاء بالانجليز فى منتصف الطريق واحلال فكرة الصداقة للانجليز بدلا من الخصومة . والتفاهم والمساومة بدلا من القطع والبتر فى حق مصر الواضح الصريح يترقبون كل فرصة هينة . ويعتقدون أن الحقوق والحريات تنال على موائد المفاوضات وبالتصاريح المخدرة والألفاظ البراقة ، فخدعوا بهذا التصريح كثيرا ، فأرسل بعض هؤلاء الزعماء الى

الرئيس ولسون يسألونه المعونة لدى انجلترا فى تقرير المصـــير فى مصر ، فكان الرد الذى كشف حقيقة الاستعمار ، وأبان عن الخـــدعة المضللة التى أعلنها (ولسون) وهكذا ظهر الاستعمار على حقيقته خادعا مضللا مهما اختفى وراء التصاريح البراقة والعبارات الخداعة .

لقد اتصل الاستعمار الانجليزى بالعرب فى أوائل الحرب العالمية الأولى ، وأعطاهم وعودا مكتوبة عن طريق محادثات جرت بين الشريف حسين بوصفه ممثل العرب وبين مكماهون بوصفه ممثل بريطانيا . تقضى بأن يقوم العرب بالانضمام الى الحلفاء ومساعدتهم وتقديم المواقع الاستراتيجية والمواد الخـام والسكك الحديدية والمطـــارات والدواب والمياه والتموين اللازم للقـــوات البريطانية . مقابل أن توافق بريطانيا على قيـــام الدولة العربيـــة ممثلة فى الحجاز وسوريا وفلسطين والأردن ولبنـــان . وقد قام العرب بواجبهم ازاء الدول المتحـــالفة كاملا وقويا . قدموا كل قواتهم ومعـــوناتهم وأوفوا بما عاهدوا ، ولكن بريطانيا كانت فى نفس الوقت الذى تتفاهم فيه معهم . وتعقد معهم اتفاق (الشريف حسين ـ مكماهون) تعقد اتفاقا آخر مع اليهود تمنحهم فلسطين وتقسم المنطقة كلها بينها وبين فرنسا بمقتضى معاهدة (سايكس ـ بيكو) وتنكرت بريطانيا لوعودها وبعد أن جاهد العرب وحاربوا فى معاركهم وقدموا شداءهم وهزموا الأتراك وأجلوهم عن هذه المناطق كلهـا . لم يلبث الانجليز والفرنسيون أن احتلوها وحاربوا العرب حربا عنيفة وقسموا هذه المناطق . وأقاموا بينها السدود والأسلاك الشائكة . وفى مصر حـــدث ذلك تماما ، فعندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، نصت فى قرار الحماية على انهـــا سترد هذه الأمانة الى أهلها بعد الحرب العالمية الكبرى . وقد جنـــدت مصر قواها فى سبيل خدمة بريطانيا فى الحرب العـــالمية الأولى . وقدمت مليونا ونصف مليون من أبنائهـــا أكلتهم الصحراء بالاضـــافة الى المؤن والمعـــدات والمطارات والجيوش . وبعد الحرب لم تلبث أن قاومت بريطانيا حق مصر فى الحرية !! وهنالك اندلعت الثورة فى مصر ، وفى سورية ، وفى العراق ، وفى فلسطين .

وفى ابان هذا الصراع بين الاستعمار البريطانى الظالم الغادر وبين العرب

والمصريين ٠٠ أعلن ولسون تصريحه وطن العرب والمصريون انه يعنى ما يقول فلما بعث اليه المصريون كان رده كالآتى :

« أتشرف باخباركم أن حكومتى قد كلفتنى أن أبلغكم أن الرئيس يعترف بالحماية البريطانية التى أعلنتها حكومة جـــلالة الملك على مصر فى ١٨ من ديسمبر ١٩١٤ » !!

وقد قابل الشعب هذا الاعتراف على حـــد تعبير الأستاذ عبـــد الرحمن الرافعى « بالدهشة المقرونة بالمرارة والألم ٠٠ وألقى صدوره شيئا من الضوء على حقيقة مبادىء ولسون ، فاستبان انه لم يكن جادا فيها ٠ اذ كيف يتفق اعترافه بالحماية على ما سبق أن جهر به فى خطبه من أن الشعوب لا يجـوز أن تنتقل من سيادة الى أخرى بمؤتمر دولى أو باتفاق بين متنافسين وأعداء ٠ وانه لا يجوز أن تساس الشعوب أو تحكم الا بمحض ارادتها ورغبتهـــا وقد قوبل هذا الاعتراف بالسخط على ولسن واستنكار ما ينطوى عليـــه من نقض المبادىء التى أعلنها ٠ ومخادعته الشعوب فى خطبه وبياناته السابقة » ٠

وقد حدث بالنسبة للعرب فى سوريا مثل ما حدث لنا فى مصر ، وتنبـــه العـــرب الى الغـــدر البريطانى وتأكدوا أن الحقوق لا تؤخذ بالتصريحـــات ولا بالعبارات المنمقـــة وانكشف كذب ولسون الذى ادعى يوما انه محـــرر الشعوب ٠

ثورة فلسطين الكبرى

٥ من ابريل سنة ١٩٣٦

ما تزال فلسطين « قلب الأمة العربية النابض » حية تنبض بالحيـــاة فى قلوبنا لا ننساها أبدا فى كل مناسبة من ذكرياتها وأحـــداثها · فهى ثأرنا الكبير ومهوى أفئدتنا · وستظل أبصارنا مشدودة اليهـــا تتأهب لتحريرها وتنادى « عائدون » لا يثنينا عن هذا الأمل وعد أو وعيد ·

وثورة فلسطين الكبرى فى شهر ابريل من عام ١٩٣٦ كانت كبرى ثورات هذا الجزء العربى من الوطن الكبير عندما أطبق عليه الاستعمار البريطـــانى والاستعمار الصهيونى معا وكان أحدهما يمهد للآخر · ويعـــد لاقامة دولة غربية فى ربوعـــه تشرد أهله وتقتلهم وتحرق قراهم وتستولى على أرضـــهم غصبا ·

ولقد قاوم العرب فى فلسطين منذ اليوم الأول لوعـد بلفور ٢ من نوفمبر ١٩١٨ فى ثورات متصلة لم تتوقف والاستعمار البريطانى يمعن فى ســحق القوة العربية ليتيح للصهيونيين فرصـــة التملك والتسلط ومضت الهجرة اليهودية منأنحاء العالم تصلالى شواطىء فلسطين ليصبح اليهود أغلبية عددية وكانت هذه الهجرة تقوم على التهريب والخيانة وقد صمد الشـــباب العربى أمامها فراقبوا السواحل وقاوموا ما وسعتهم المقـاومة ولـكن القوة الغـاصبة كانت أقوى منهم وكان لابد من عمل جماعى حاسم · وسرعان ما دعيت البلاد الى الاضراب العام المستمر حتى توقفت الهجرة وعم الاضراب فلسطين كلهـــا وتناول جميع مظاهر الحياة التجارية والصناعية وبحارة الموانى · وسـائقى السيارات · وأضرب المحامون عن المرافعـــة وبلغ من دقة الاضراب أن توقف المساجين عن العمل فى السجون وتوالت المظاهرات فى جميع أنحاء البلاد وقد رافقها اشتباكات واستشهادات وسرعان ما تكهرب الجو وتحولت المظاهرات

والاضرابات الى اعلان العصيان المدنى بالامتناع عن دفع الضرائب وفى هـذه الفترة أعلن دخول ٤٥٠٠ مهاجر جدد فأدى ذلك الى انتقال الحركة الى مرحلة الثورة المسلحة الدامية وبدأ الهجوم على المستعمرات اليهودية وكثرت عمليات تدمير خطوط السكك الحديدية وقلب القطارات ونسف الجسور وتخريب الطرقات وقطع الأسلاك والهجوم على المخافر ٠

وحاولت الادارة البريطانية خداع العرب أو الفت فى عضدهم ببحث شكاواهم أو العمل على ازالة مظالمهم ولكن ذلك كله لم يحل دون الاستمرار فى الثورة فقد كانوا يعرفون من خداع بريطانيا ما يجعلهم يشكون فى كل وعد أو عمل ٠ وكانوا يؤمنون بأن الموقف أكبر من مجرد البحث فى مسائل فرعية اذ كانت الثورة منصبة على الجريمة التى تقوم بريطانيا بتنفيذها لحساب الصهيونية ٠

وأخذت السلطة البريطانية تنكل بالعرب محاولة قمع الثورة فاعتقلت وقتلت وحرقت القرى ودمرتها على سكانها وفرضت العقوبات والغرامات ٠ ونسفت منطقة واسعة فى مدينة يافا مؤلفة من ٢٢٠ منزلا ٠ وأعلنت أحكاما جديدة بالسجن المؤبد والاعدام لمن يرمى مفرقعة أو يقطع سلكا وتحركت قوات عسكرية بريطانية من مصر ومالطة على نطاق واسع ٠

ومع ذلك فقد زادت نار الثورة اندلاعا وضراما فمضت العصابات المجاهدة تعمل وتدفق المتطوعون من سورية والعراق وشرق الأردن ٠ وبلغت الثورة ذروتها حين أقبلت من العراق نجدة بقيادة البطل فوزى القاوقجى وانضم اليها متطوعو سوريا ولبنان والأردن ٠ وبدأت معارك ضخمة ومعارك حربية امتدت مساحتها عدة كيلو مترات منها معركة (بلعا) ٠

وأسقط المجاهدون الطائرات فى مختلف الساحات ودمروا المرافق ٠وفجروا أنابيب البترول بين حيفا والعراق ومرج وبنى عامر وشرق الأردن عدا حوادث اغتيالات الضباط والبوليس ٠

واندمجت الأمة كلها فى الثورة وأعلنت انه لا سبيل لوقف الثورة الا بايقاف الهجرة واستمرت الثورة ستة شهور كاملة ولم تكن لتتوقف لولا أن بريطانيا خدعت ملوك العرب وأمراءهم وضغطت عليهم بسلطانها الاستعمارى

فى أن يتوسطوا لايقاف الثورة وتلقى العرب فى فلسطين برقية موقعا عليها من الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية والملك غازى ملك العراق والامام يحيى ملك اليمن والأمير عبد الله أمير شرق الأردن هذا نصها :

« الى أبنائنا عرب فلسطين : لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة فى فلسطين ٠ فنحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للاخلاد للسكينة حقنا للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل وثقوا بأننا سنواصل السعى فى سبيل مساعدتكم » ٠

واضطرت المقاومة العربية أن تذعن لأمر ملوك العرب وأن توقف الثورة فى انتظار ما ستسفر عنه المساعى ولكن ما كادت الحياة تعود الى سبيلها العادى حتى أعلن وزير المستعمرات البريطانى بأن هناك هجرة جديدة الى فلسطين وأن هناك لجنة بريطانية ستقصد الى فلسطين لبحث الموقف ٠ وعلم العرب أنهم خدعوا مرة أخرى وأن بريطانيا استطاعت أن تطفىء ثورتهم الضخمة العارمة ٠

وقاوم العرب من جديد واندلعت الثورة مرة أخرى ٠

لن ننسى لواء الاسكندرونة

نوفمبر سنة ١٩٣٧

ان لنا نحن العرب أرضا سلبها الاستعمار منا يوما ، ولكننا لا ننساها ، فاذا جاء موعد ذكراها كنا أحرص ما نكون على أن نتحدث عنها مجددين العهد بأن نستردها ونعيد اليها عروبتها · وفى مقدمة هذه الأرض (فلسطين) و (لواء الاسكندرونة) فقد حرص الاستعمار فى فترات الضعف التى مرت بالأمة العربية أن يسلبها بعض أجزائها ليقطعها لغير أصحابها الأصليين ، ضاربا عرض الحائط بماضيها وتاريخها وأمجادها ، كجزء من خطة طويلة كان يهدف بها الى تمزيق هذه الوحدة المقدسة ويدق فيها أسافين ضخمة ولقد ظل العرب يقاومون ماوسعتهم المقاومة العزلاء حتى جاء اليوم الذى أصبحوا فيه من القوة بحيث لم يعد فى وسع الاستعمار أن يقطع من أرضهم شيئا ، أو يدق فيها اسفينا ، فقد بلغوا حدا كبيرا من اليقظة بفضل (الانتفاضة العربية) التى يقودها رائد القومية العربية « جمال عبد الناصر » ·

(لواء الاسكندرونة) أرض عربية لا سبيل الى تجاهل نسبتها بذلك التاريخ الطويل · فهذا اللواء كان جزءا من ولاية « حلب » اشترك معها فى أمجاد التاريخ العربى الطويل فى ابان مقاومة ضخمة رددنا بها هجمات الروم على الحدود العربية ويقع مرفأ اسكندرونة على مضيق « بيلان » الذى هو مفتاح سوريا · فكانت الميناء الطبيعى لسوريا الغنية بحاصلاتها الزراعية والاقتصادية ·

وكانت الاحصائيات قبيل الحرب العالمية الأولى تشير الى أن عدد سكانها ٢٢٠ ألف نسمة من بينهم ٤٠ فى المائة من الأتراك والباقى من العرب · وبالرغم من هذا فقد عمدت فرنسا فى سبيل كسب ود الأتراك العثمانيين على حساب العرب أن تسلم هذا اللواء الى الأتراك الذين كان لهم مطامع خاصة فيه لموقعه الاستراتيجى الهام · ولم يكن من الجائز قانونا أو بأى وسيلة من

وسائل التحكيم أو الاستفتاء أن تصبح الاسكندرونة أرضـــا تركية ٠ فهى منطقة عربية منذ أجيال بعيدة ولا تستطيع سوريا أن تتخلى عنها ولم يكن من شرف الوصاية أن تنتزع فرنسا أرضـــا لتسلمها الى وطن آخر فى سـبيل كسب خاص لها على حساب أصحاب الأوطان التى انتدبت عليها ٠

وعندما نستعرض تاريخ الاسكندرونة العربى الأصيل تمر على أبصـــارنا صور حية من النضال العظيم بين خلفاء الاسلام وقيـاصرة الروم ٠ وقد كان للاسكندرونة دور فى معارك العرب التى وجهها معاوية وغيره من الخلفـــاء لاحتلال القسطنطينية وقد قالت دائرة المعارف الاسلامية انه لا تعرف بقعة من الأرض سقيت بالدماء أكثر من هذه الدروب التى اشتبكت فيها أعظم الملاحم وأشد المعارك كما قدمت الاســـكندرونة عددا من الأبطال الأماجـــد الذين استشهدوا فى سبيل الحرية ٠

وقد انتهز الأتراك فرصة تفاهمهم مع فرنسا عام ١٩٣٧ وشنوا غارة شعواء على سوريا وبادرت العناصر العربية فى العمـــل على مقاومة تركيا ٠ وألف العرب جماعات للدفاع عن الاسكندرونة كما استعانت بروابطهـــا مع الدول العربية ولكن فى هـــذه الفترة بالذات (عام ١٩٣٧) كانت الدول العربيـــة منقسمة على نفسها تعانى فى الداخل صراعا عنيفا بعد أن شجع الاســـتعمار قيام الأحزاب السياسية التى فرقت وحدة الأوطان العربيـــة فى الداخل ٠ وأثارت فيما بين أهلها صراعا عنيفا فلم يكن هناك ما يمكن هـــذه الدول من مؤازرة سوريا فى موقفها مع تركيا ٠ واستمرت المناقشات بين فرنسا وتركيا فى عصبة الأمم وبين أنقرة وباريس ٠ وعملت تركيا على فصـــل اللواء عن سوريا بالقوة وبذلت فى هذا السبيل جميع وسائلها الانتقـــامية وعرضت عصبة الأمم التى كانت خاضعة للاســـتعمار انشاء وحـدة منفصلة من لواء الاسكندرونة وبذلك بدأت فرنسا عملية تتريك اللواء وأقصى الموظفون الذين هم من أصل عربى وقتل كل من قاوم عملية الانفصال ٠

وفى ٢ من نوفمبر ١٩٣٧ أعدت فرنسا لواء الاســـكندرونة للحكم الذاتى تمهيدا لفصله نهائيا عن ســـوريا واشترك الجيش التركى والجيش الفرنسى فى احتلال اللواء بالرغم من رغبة أهله الذين كانوا قد أعلنوا انهم عرب ٠

ثم وقعت فرنسا وتركيا (معاهدة أنقرة) التى تنص على حكم اللواء حكما مزدوجا ثم لم تلبث فرنسا أن انسحبت من الاسكندرونة وسلمته الى تركيا بدون قتال وقد شردت تركيا الأغلبية العربية وغيرت اسم اللواء وأطلقت عليه اسم « هاتاى » وأنشأت تركيا فى اللواء قواعد جوية وبحرية وبرية نظرا لموقعه الاستراتيجى الهام ٠

وهكذا استولت تركيا على اللواء بالاكراه والقوة وسلطة الدولة المنتدبة التى لا تملك الحق الشرعى فى تمزيق أراضى الدولة ولم يتحقق فى هذا الانفصال أى مبدأ من مبادىء الحق العام أو رغبات أكثرية السكان التى تبينتها لجنة عصبة الأمم التى انتدبت لاجراء استفتاء حر فى الاسكندرونة وثبت لها أن الأغلبية الساحقة عربية وأن أهل اللواء يرفضون الانضمام الى تركيا ٠ ٠ ٠

وقد حاولت سوريا بعد استقلالها عام ١٩٤٥ المطالبة باعادة اللواء ولكن الاستعمار البريطانى والفرنسى تجمع على مقاومة اعادة الحق الى نصابه بالرغم من رغبة أهله وسكانه الذين ما زالوا حتى اليوم يؤمنون بعروبتهم ويطالبون بالعودة الى وطنهم الأم ٠

ونحن حين نذكر الاسكندرونة اليوم نتطلع الى اليوم الذى يعود فيه الينا هذا اللواء ٠

ولسنا نستطيع فى هذه المناسبة الا أن نذكر قول دزرائيلى :

« ان مصير العالم سيقرره يوما مرفأ (الاسكندرونة) الذى تشير عليه قبرص باصبعها » ٠٠

والى معارك أخرى في سبيل المقاومة والتجمع والوحدة الكبرى ٠٠

فهرس